العدد: ٣٦ / السنة الثامنة / (مايو - يونيو) ٢٠١٣
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

الوَاو

بلغة التجريد تَلهجُ باسمه،
بانحناءتها تقول دومًا "يا الله"،
فوا أسفًا على قوم جَهِلوا رسالتَها،
إلى السجود تُنبِّهنا إشارتُها..

* * *

هو

من الفوضى إلى النظام–١

المسلمون وحقوق الإنسان

رسالة حراء الخفاقة
في الآفاق والأنفس

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٣٦
السنة الثامنة
(مايو – يونيو) ٢٠١٣

دروس من محنة العلماء

يأتيكم العدد الجديد من حراء في أجواء ملبدة تعيشها أمتنا، ربما عبّر عنها عنوان المقال الرئيس للعدد "من الفوضى إلى النظام" للأستاذ محمد فتح الله كولن، إلى جانب باقة من مقالات نخبة من العلماء والمفكرين.

ويقال عادة إن المناسبة شرط؛ ومناسبة الكلام هي فقدنا لكاتب من كتّاب مجلة حراء البارزين، بل واحد من علماء الأمة الكبار الذين لا يختلف اثنان من أبنائها على علو كعبهم وسعة علمهم وسبق عطائهم... إنه العلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله رحمة واسعة. ولأن المناسبة الأليمة حبلى بالعبر والدروس، فالواجب تجاه الأمة أولاً، وتجاه علمائها ثانيًا، هو الوقوف عليها لتكون الأحداث عبرة، والمحن عظات هادية على طريق المستقبل بإذن الله.

من القصص البليغة في مثل هذا المقام، ما يروى عن هارون الرشيد (الخليفة العباسي) أنه قال يومًا ليحيى بن أكثم: "ما أنبلُ المراتب؟" قال: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، فلا أحد أجلُّ منك. فقال هارون الرشيد: "بل أجلُّ مني رجل يُعلِّم في حلقة ويقول: قال الله وقال رسول الله؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ".

الكلمات السابقة تشير إلى معنى غائب في واقعنا، واقع اشتد فيه التجاذب حتى أنسى حقائق الدين الكلية الجامعة، ومقتضيات الانتماء للأمة الواحدة. وأهم هذه المعاني، أن مكانة العالم ورسالته هي أسمى وأهم من كل مكانة عامة أو موقف أو اختيار عابر في الحياة الدنيا؛ وعليه فإن كرامة العالِم لا تجُبُّها الاجتهادات، ولا ينبغي لها أصابت أو أخطأت.

بل ما ينبغي، هو أن يُعلَم جيّدًا أن هذا الافتراق وآثاره البادية في الاستنزاف المتبادَل بين أبناء الأمة لا رابح منه بين أبنائها، ولئن كان للمرء ألاّ يوافق على اجتهاد العالِم في الرأي فيخالفه في أساسه ودليله، فليس له أن يقر فعل من يضيّعون حياة العالِم في الدنيا، غير مبالين بضياع آخرتهم نتيجة لفعلهم هذا، أيًا كان مقترِفه أو دوافعه.

لقد جاءت هذه المصيبة في ظل أجواء الفتنة المحيطة بالأمة في كثير من ساحاتها، وهي فتنة يمتحن فيها العلماء أكثر من غيرهم، فيتصيّدُ فرصتها من لا يحب الخير لهذه الأمة لينتقص من مكانة علمائها جملة، ويرمي دورهم في حياتها، في تجلّ أليم من تجليات محنة مؤسسة العلم والعلماء في واقعنا.

إن "موت العالِم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار"، هكذا يلخص الإمام الحسن البصري ﷺ علاقة العلماء بحياة أمتهم، أو حياتهم ومماتهم بحالها ومآلها... أما إن كان موت العلماء مقترنًا بأزمنة الفتنة فتلك قصة أخرى... قصة المحنة في اشتدادها.. قصة الشدة حين تبلغ مداها. غير أن لطف الله السابق ورحمته بهذه الأمة، تقرران أن بعد العسر يسرًا وأن ليس بعد هذا الضيق إلا الفرج. ألم ينشدوا: اشتَدِّي أزمةُ تنفَرجِي***قد آذَنَ لَيلُكِ بالبَلَجِ... وأيّ شدة أعظم من موت العلماء قتلاً في محاريب المساجد؟!

غير أن أفق انبلاج الظلمة لا يعفي من أمانة بيان الحق، ومسؤولية التمسك بمعالم الاهتداء وجادة الصواب، برغم شدة الفتن، والعض على الكلمة السواء... ففيها النجاة للجميع. وأيًا تكن التداعيات والظروف، فلمثل تلك المعاني عاش العلامة "البوطي" معلِّمًا ومربّيًا.. فاللهم اغفر له، وارحمه رحمة واسعة، واجعله عندك في مقعد صدق... آمين.

المحتويات

من الفوضى إلى النظام–١ / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
حاجة الدعوة إلى العلم / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	٥
يا معلِّمي العالَم ارشدوا / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	١٠
مرور البرق بين العلم والإيمان / د. عبد الدائم الكحيل (علوم)	١٥
علاج الداء من معين سيرة سيد الأنبياء / أ.د. فتحي حجازي (قضايا فكرية)	٢٠
سالِك الطريق / حراء (ألوان وظلال)	٢٢
اجتماعية الإسلام / عبد الحق معزوز (قضايا فكرية)	٢٣
التربية الإسلامية والبعد الإستراتيجي لقضايا التنمية–٢ / أ.د. خالد الصمدي (تربية)	٢٥
السلطان عبد الحميد الثاني والتصوير الفوتوغرافي / محمد بهادير دوردنجي (تاريخ وحضارة)	٣٠
تعبير الرؤيا.. محاولة جادة لاستكناه النص / أ.د. عماد الدين خليل (أدب)	٣٣
جالوت المهزوم / حراء (ألوان وظلال)	٣٦
وكان له ما أراد / د. عبد الله صالح العريني (قصة)	٣٧
حدود التجديد والاجتهاد في الفقه الإسلامي / أ.د. علي جمعة (دراسات إسلامية)	٣٩
ابتهال مع موكب الحجيج / محمد محمود عبد العال (شعر)	٤٢
الإنسان المعرفي / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٤٣
منزلة الفنون الصوتية في الرؤية الإسلامية / أ.د. عمار جيدل (ثقافة وفن)	٤٤
السلام وموقف الإسلام منه / د. إسحاق بن عبد الله السعدي (قضايا فكرية)	٤٧
المسلمون وحقوق الإنسان / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	٥٢
رسالة حراء الخفاقة في الآفاق والأنفس / د. سمير بودينار (أنشطة ثقافية)	٥٧

فتح الله كولن

من الفوضى إلى النظام

(١)

منذ عصور والناظر إلى مجتمعنا يرى أنقاضًا وأنكاثًا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعًا، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض.

نزعت حركات التغير والتحول الأخيرة في العالم القناع عن كثير من الوجوه، وأظهرتها على حقيقتها. كذلك أزاحت الغشاوة عن عيوننا إلى حد ما... فتوضحت حقيقة كنه الأشخاص والأشياء شيئًا فشيئًا. فاستطعنا أن نرى ما حصل بصورة أوضح ونستنبط من الحوادث نتائج أسلم وأمتن... وصرنا نفهم أن ما تعرض إلى شؤم الإبعاد والترك والنسيان في هذا البلد منذ قرنين، ليس الزي والفكر وفلسفة الحياة

حصرًا، بل ثقافتنا الذاتية، وحِسّنا التاريخي، ونظامنا الأخلاقي، وفهمنا للفضيلة، وتصورنا الفني، وجذورنا المعنوية أيضًا، قد تعرضت -وربما مع ضرر أعظم- إلى التآكل. فاهتزت أواصرنا الروحية وجفّت منابع فضيلتنا، وتعمقت الهوة بين حاضرنا وماضينا.

نعم، شهد عالمنا المبارك أطوارًا عجيبة فيها سكت المثقفون، وصُكّت أفواه الفكر، وظاهَرَ أصحابُ القوة والقدرة الضلالةَ والانفلات عن الأصول، وتعارفت الأجيال مع الأحاسيس الهامدة والآيسة والمظلمة في همهمات الحيرة وكأنها جنائز.

وكم عينٍ تنفست دموعًا بلا حول ولا حيلة، في زمن أحمر يحاصره اليأس أدخنةً سوداء من كل جهة، وصرخت مشاعر القلوب بأحاديث نَفْسٍ في وجه أناس لا يعرفون ما الخجل، وقالت في أنينها: "ما الرجاء من حيارى فتحوا أشرعتهم لريح الإلحاد، ومن بُلهٍ يصفقون لكل واحد ولكل شيء، ومن منكوبي الوجدان المعتادين على طأطأة رؤوسهم أمام القوة، ومن شرف وعزة ملوثة؟ لكن ما اهتز تزعزع، وما انهدم خرب، وما ذهب انقطع، ولم يحل محله شيء جديد. نعم، قد أزيل ما تحطم ولم يقم مقامه شيء، فانقلب المجتمع رأسًا على عقب باعتبار قيمه. ذلك بشهادة القلق وضياع الأمان المحسوس -في عصرنا الحاضر خاصة- في أغوار قلوبنا جميعًا، حتى العقلانيين الواقعيين(!) الذين لا همّ لهم إلا تحقيق مآربهم اليومية.

أرجوكم أن تتفكروا... بمَ ننجو من الفقر الأخلاقي والمعضلات المتشابكة يومًا بعد يوم حتى جعلت الحياة حملاً ثقيلاً وحيرة لا تطاق؟ وكيف نتخلص من نوبات أمراضنا الفردية والعائلية والاجتماعية؟ وكيف نسير إلى المستقبل في ثقة واطمئنان؟

هل نستورد أفكارًا حالمة وخيالية من هنا وهنالك؟ أم بعقلية العصر التي نحاول أن نبني عليها كل شيء؟ كلا... كلا! لن يحمل هذا الحملَ الأثقل من جبل "قاف" منطقٌ كهذا المنطق وأفكارٌ مجهولة النسب كهذه!

منذ سنين مديدة لم تتجاوز حملات التجديد التغييرَ في الصورة. فقصرت عن إدراك مقاصد الآمال والخيال، وعن أدنى غاياتها المعلنة. وظن الذين قبضوا على الزمام في القمم، أن الإمساك بالفرشاة وتلطيخ جروح البدن الاجتماعي والوطني بالأصباغ هو المعرفة والحنكة، بل ظنوه ثورة وانقلابًا... وغاب عنهم كليًّا النزف الباطن، ومضاعفات النزف الباطن، في الأعضاء الحيوية للمجتمع وفي شرايين روحه. هذا ما حصل في تاريخنا القريب، باستثناء المظهر والتمثيل الخاص لأبطال كفاح الاستقلال المستمد قوته من الإيمان والأمل والعزم. هذا، مع إجهاضنا حتى للقوة والصفوة المكنونة في هذه الحملة المباركة باعتبار منطلقاتها. فعسير أن تتحقق وحدة كالتي تحققت أو نهضة وحيوية كالتي حصلت.

نحن اليوم في أمس الحاجة إلى طريق يوصلنا إلى الحقيقة والفضيلة، ومنهج تفكير لا يخدعنا، وموازين لا تضلنا. والواقع أن الوجدان والقيم الأخلاقية مصادر نور تكفي لحل كثير من المعضلات. لكن في أيامنا هذه، الوجدان جريح والقيم الأخلاقية شتات. فهذان المحركان قد أجتُزّا من الجذور وجُففت ينابيعهما.

فالحاصل أن مجاميع الناس التي انفصلت عن بعضها وتوسعت الهوة بينها في السنين الأخيرة، إن لم تقع في فقر مدقع في حياتها الفكرية وروحها وجوهرها، فقد وقعت في الاغتراب عن بعضها والاحتراب فيما بينها كالذئاب. فالبياض عند بعضهم سواد عند غيرهم، وما يدعو إليه بعضهم يخالفه غيرهم، والبديل المقترح من بعضهم داعية هزيمة عند غيرهم، وصلابة بعضهم تعصب عند غيرهم. ومع هذه السلبيات، تخيل مدى هذا الاحتراب، أو قل عراك العميان، ولا قسطاس يرتضيه الجميع لمعرفة أيهم أدنى إلى الحق وأقرب.

ولذلك، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى طريق يوصلنا إلى الحقيقة والفضيلة، ومنهج تفكير لا يخدعنا، وموازين لا تضلنا. والواقع أن الوجدان والقيم الأخلاقية مصادر نور تكفي لحل كثير من المعضلات. لكن في أيامنا هذه، الوجدان جريح والقيم الأخلاقية شتات. فهذان المحركان قد اجتُزّا من الجذور وجُففت ينابيعهما.

لا ترتقي الأخلاق بالعرفان ولا الوجدان
حسنُ الفضيلةِ من خشية الله في الإنسان
فهب أن الخوف من الله في القلوب قد غاب وانحسر
فلن تجد إذن للعرفان والوجدان ذرة من أثر[1].

وزد على ذلك هشاشة الإرادة وضمور المحاكمة العقلية ووحشية الأحاسيس البشرية وتعطشها للدم كالتنين، لتعلم هول الكابوس الذي نعيشه.

فمن الضرورة إذن، أن نبدأ العمل بإعادة النظر في عناصر محاكمتنا الأساسية، وتمييز الخط الفكري المنطقي، وإيفاء الإرادة حقها، وإعداد جيل عزوم، بل أجيال. فلنقر أولاً بمراعاة الأسباب، لأننا نعيش في عالم محاط بها. نحن نعيش في عالم الأسباب. فإهمالها محض "جبرية"، وضلالة بالحاصل. وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة (قاعدة تناسب العلية) من أهم لوازم التكليف.

فإن لم نعين أسس الأفكار المضرة والتيارات المفسدة، بمشاعر مسؤولية جادة لنقاومها منذ اليوم، فسوف نرى في المستقبل أبعادًا مختلفة للبؤس الأخلاقي والنكبة الاجتماعية والانحرافات الأخرى.

وليس الحنيك من ينتبه إلى النكبة والبؤس بعدما تظهر النتائج عيانًا، بل من يجزم بما سيقع وبأي سبب وسياق من قبل الوقوع. ومن العسير الادعاء بأننا أبدينا فراسة كهذه في تاريخنا القريب. أما أن نزعم بأننا أوفينا الإرادة حقها فكلاّ! بل إنساننا في هذه المدة المدلهمة ظلمةً يشك حتى في إرادته الذاتية وفكره وعزمه... بل ما يفتأ يبحث عن إرادات سامية ومدهشة لتدير شؤونه. والأدهى والأمَرّ توهين الشخصية وأسر العزائم في أصحاب المشاعر النقية والوجدان الطاهر بإيحاءات من قبل المفكر فلان، والعالم علان والدولة الفلانية! ثم بمرور الزمان، صرنا نحكّم فلانًا وعلاّنًا في تفكيرنا وسلوكنا، فأصابونا بأنواع من دوار الرأس وازورار التفكير وانحراف الملاحظة وانزلاق الشخصية. فأصيبت الأرواح المستسلمة تمام الاستسلام خاصة، بأعطاب رهيبة من المحال إصلاحها. وكان الأصل أن لا نؤمن أو نرضى بإرادةٍ ما حققنا فيها ولا محصّناها ما عدا الإرادة الإلهية.

يقول ديكارت: "لا قيمة للفكر ما لم يتمتع بالحرية". أما كان ينبغي أن نفكر على الأقل مثل ديكارت، لتخليص أرواحنا من نظم التفكير السكولاستيكية البالية والمتعفنة في معظم جوانبها. ولكن هيهات!

يجب على الأجيال المنورة آفاقها الدنيوية/الأخروية، التي ستعين معالم تكوّناتٍ يبدو أن لا فكاك من حدوثها في العالم في السنوات القادمة، أن تعيد النظر في الأفكار والمعادلات والأنظمة، الواردة إلينا من الخارج أو المُشكّلة في الداخل، وتطهير المجتمع من "لوثيات" الاغتراب عن الذات، وشدّه بجذور معانيه الأصيلة... وذلك حتى يستطيع الحفاظ على جوهره وشخصيته، ويتقدم إلى مستقبله على خطه الذاتي أثناء التعايش الحميم مع العالم... وحتى يطلع على التفاف الماضي بالحاضر إذ يتقدم، فلا يشيح بوجهه عن الماضي لأنه قديم، ولا يقبل على كل ما يظنه طريًّا من غير بصيرة لأنه جديد. إن أبرز خصال جيل الضياء هذا، أن يحيط علمًا بشؤون اليوم والغد، ويفهم أن ما ينبغي أن يعلمه ليس منحصرًا بما نعرفه نحن، ويجهد في استيعاب الحقيقة بترشيحها من مصفاة العقل والمنطق والفكر في دفء أنسام الإلهام، إلى جانب مكتشفات المختبر.

ومن المهم أن نعرف جيدًا تأريخنا القريب، وأبطال التاريخ، لكي نحقق تطورًا وتغيرًا كهذا، فنعرف الأسباب والشخصيات المؤثرة في تكوين تاريخنا الحاضر، ومَن أثار عشقَ وحماسَ التواجد والتكوّن مُجدَّدًا في صدر هذه الأمة... ومَنْ لحّن نشيد روح "الأمة"، ومِنْ بين أبناء الوطن أنشدها؟ فأظنّ أننا سندرك جيدًا ما ينبغي أن نتخذه مبادئَ، ونستطيع أن نضع برامج واضحة للغد، بعد أن نفهم ما ذكرناه فهما دقيقًا... ثم نسعد بالسير في درب الشجعان الذين يحتفظون في صدورهم بحيوية الفكر والقضية والعشق وأخلاق التسامح. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(1) ترجمة بَيتين لمحمد عاكف أرصوي، ديوان "الصفحات"، ص:٢٧١.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

حاجة الدعوة إلى العلم

قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨). من خلال هذه الآية وغيرها، يتبيّن أن العلم أساس هذه الأمة، بل هو أساس استخلاف هذا النوع كله على بقية الأنواع في أرض الله؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣٠-٣١). بهذا العلم استخلف آدم عليه السلام، وبهذا العلم استُخْلِف أبناؤه من بعده... بهذا العلم رُشِّحَ مَنْ رُشِّحَ للإمامة في ذرية آدم، وبهذا العلم أَمَّ مَنْ أَمَّ هذه الذّرية، بدءًا من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى مَنْ اهتدى بهُداهُم... وحين نقص العلمُ نقَصت الأمة وتنقصت من أطرافها، ولن يمكن تدارك الأمر ولا استدراكه إلا بعَودة العلم إلى موقعه الطبيعي، وعَودة الأمة إلى موضعها الطبيعي في هذا العلم.

حاجة الدعوة الإسلامية إلى العلم، كحاجة الكائنات الحية إلى الهواء والماء الذي جعل الله منه كل شيء حيًّا؛ لا حياة للدعوة ولا وجود لها ولا نمو لها ولا كمال لها إلا بالعلم، ولا يمكن أن توجد أساسًا إلا بالعلم، ولا يمكن أن تنمو إلا بالعلم، ولا يمكن أن تبلغ أشُدَّها وتنتهي إلى غاياتها إلا بالعلم.

العلم رأس القوة وأساس الفلاح

العلم رأس القوة، والله ﷻ طلبَ إعدادَ ما يُستطاع من قوة... وأوّل ما أمر الله به في بناء هذه الأمة هو طلَبُ العلم، هو النداء الخالد: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١)، نداءٌ إلى رسول الله ﷺ، ونداء إلى أصحابه مِن حوله، ونِداءٌ إلى إخوانه الذين جاءوا بعدهم، والذين لم يأتوا بعدُ، نداءٌ إلى الجميع إيذانًا وإعلانًا بأن مرحلةً في الإنسانية يجب أن تبدأ، هي مرحلةُ القيام والتأسس على العِلم، والعلْم فقط.

يجب تخريج أبناء لآدمَ عليه السلام مؤهَّلين تأهيلاً علميًّا صحيحًا، ليستطيعوا القيام بالخلافة في هذه الأرض وفق العهد الذي عهد الله ﷻ به لآدم عليه السلام ولذريته من بعده: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه:١٢٣-١٢٤).

إن ما يُرى من نقصان هذه الأمة، ومن نقصانِ القلب الحي فيها وهو الدعوة إلى الله ﷻ، إنما مردُّه أساسًا إلى النقصان في العِلم، لأن العلم لا يمكن في هذا الدين فصلُه عن العمل، فإذا قيل بنقصان العلم فقد قيل بنقصان العمل أيضًا، لأن من لوازم العِلم العمل به، فلا يُتصوَّر عِلم في هذا الدين بغير عمل وفق مُقتضى هذا العلم. إن هذا لازمٌ لهذا ولازمٌ منه، وحين ينفصلان، ينفصلان شرَّ انفصالٍ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾(الجمعة:٥)؛ لم يعملوا بمقتضاها، ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة:٥).

القرآن حجةٌ لك حين العمل به، وحجةٌ عليك حين عدم العمل به. فالنقصان الحاصل في العمل الآن على مستوى الأمة جمعاء أو على مستوى الخلايا الحية في الأمة، إنما هو نقصان أساسًا في العلم. فما القصدُ إذن بـ"حاجة الدعوة الإسلامية إلى العلم"؟

الدعوة مهمة شاملة

الدعوة الإسلامية -بمعنى النداء، من دعاه يدعوه إذا ناداه لفعل أمر أو تركه- لها صورة بسيطة عادية، تكون فيها الدعوة ممثَّلة في تبليغ الأوامر للائتمار وتبليغ النواهي للانتهاء، وهذه مأمور بها جميع الأمة كل بحسب درجته، لأنها عن طريق الائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه تكون دعوة مأمورًا بها الجميع وقادرًا عليها الجميع إنما بشرط العلم... فلا يُتعبَّد الله ﷻ إلا بالعلم، ورأس العبادة الدعوة إلى الله ﷻ، لأن الأجر الذي يترتب عليها لا يترتب على شيء سواها. والجهاد -بالمنزلة التي تعلمون- هو جزء من كلٍّ، أي جزء من الدعوة إلى الله ﷻ. فللدعوة صور كثيرة؛ منها الجهاد في سبيل الله في ظرف من الظروف وفي صورة من الصور، وللجهاد صور كثيرة؛ منها المجاهدة بالدعوة للقرآن: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ -أي بالقرآن الكريم- ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٢).

وكل ذلك دعوة إلى الله ﷻ في صورة من صورها وفي مرحلة من مراحلها. فالدعوة النداء، مأمور بها الجميع ويطيقها الجميع، وإليها يشير حديث رسول الله ﷺ: "بلغوا عني ولو آية" (رواه البخاري)، من علم آية فقط، علمها وعمل بها، فعليه أن يبلِّغ تلك الآية التي يعلم المقصود بها، فأيّ حظ من العلم الشرعي بهذا الدين يجب أن يبلَّغ، إذ هذه الأمة هي أمة الشهادة على الناس، والانتماء الصحيح إليها إنما يتمثل في الدعوة، ولا يتمثل في غير الدعوة. فالمسلم من أمة محمد ﷺ، بحكم كونه من هذه الأمة، هو داع إلى الله

ﷻ ضرورة بمقتضي نصوص كثيرة في معنى شهادة هذه الأمة على الناس: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(الحج:٧٨)، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ، ولذلك الجميع مأمور بالدعوة ولا يستثنى أحد منها.

الدعوة وإحلال الشرع في الواقع

وهناك الدعوة -إلى جانب هذه الصورة العادية البسيطة- المطلوبة من الجميع (الدعوة النداء)، هناك الدعوة التي يمكن تسميتها بـ"تنزيل الدين في الواقِع". هذه صورة تتضمن مفهومًا أضخم من المفهوم الأول للدعوة الإسلامية. فالدعوة النداء -أي دعوة الناس للائتمار بأمر الله أو الانتهاء عما نهى عنه- ما هي من جملة هاته الدعوة بالمعنى العام، التي يراد بها إحلال الشرع في الواقع، وجعل الواقع سائرًا وفق الشرع، ومحكومًا بالشرع، ففعْلُ الناس في الزمان وفي المكان، وفي علاقة الإنسان بعضِه ببعضٍ ليس عشوائيًا، وليس جزافيًا وليس اعتباطيًا وليس خاضعًا للهوى، بل هو محكوم بالشرع ليكون عبادة كما طلب اللهُ من الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(البقرة:٢١)؛ الناسُ كلُّ الناس مطلوب منهم عبادة ربهم، فلا يَخرج فعْلُ البشر عن مستوى النية، وعن مستوى التعبير، وعن مستوى التفكير، وعن مستوى التدبير -في الفعل والتصرف- لا يَخرج أيُّ فعلٍ بشري عن دائرة العبادة لله أو لغير الله ﷻ. فهذا الفعل إما أن يراد به الله ﷻ، ويُفعَل وفق شرع الله النصي أو المستنبَط من النصوص الشرعية، وإما أن يُفعَل وفق الهوى ويراد به غير الله ﷻ.

فالدعوة الإسلامية إذن بهذا المفهوم، أوسع وأشمل من الدائرة الأخرى، حيث تصبح الدعوة بمعنى تنزيل الشرع في الواقع، غاية وهدفًا، وبمعنى طلب الائتمار بأمر الله والانتهاء عما نهى عنه، وسيلة، ولتحقيق ذلك توجد عدة أمور تستلزم ضروبًا من العلم ليحدث هذا الأمر أمر تنزيل الشرع في الواقع. وجميع قصص الأنبياء موضحة لهذا الأمر -وهي في صميم الدعوة بهذا المعنى- وقصة رسول الله ﷺ التي هي السيرة النبوية، هي-أساسًا قصة مرحلية لهذا الأمر، وجميع تجارب المصلحين المخلصين العلماء هي تجارب للدعوة الإسلامية بهذا المعنى، هي محاولات واجتهادات لتنزيل الشرع على الواقع في زمان بعينه، في مكان بعينه، لدى إنسان بعينه، لدى ناس معينين... إذ لو كان الأمر أمر توقيف في أمر الدعوة -بمعنى تنزيل الشرع في الواقع- لتكفل الله ﷻ، بل لأمر الله ﷻ بحفظ نصوص السيرة حفظًا تامًّا في أعلى درجات الوثوق -كأنه في درجات القرآن- لتهتدي به الأمة، لأنه سيصير ملزِمًا لها، ولكان ترتيب القرآن الكريم على حسب نزوله أيضًا، بل ولتعبدنا به أيضًا على حسب النزول، وللزم بقاؤه على الكيفية التي نزل بها لئلاّ يحيد الناس عن ذلك المنهاج قيد أنملة... لكن الله ﷻ جعل شيئًا ثابتًا هو الشرع في نصوصه؛ في نصه المعجز، وفي نصه البيان، إذ البيان هو كذلك وحي من الله تعالى: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" (رواه أبو داود) كما قال ﷺ لجعل الشرع في هذا المستوى.

إذن فهناك شيء ثابت هو الشرع في نصوصه الثابتة، وهناك شيء متغير هو الواقع إذ يتبدل باستمرار، يتبدل ويتغير، يؤثر فيه الزمان، ويؤثر فيه المكان، ويؤثر فيه الإنسان... فلكل مقام مقال، ولكل حال رجال، ولكل ظرف اجتهاد يناسبه... والأصول الكبرى تستفاد من التجارب الكبرى من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن قصة رسول الله ﷺ، ومن التجارب اللاحقة الراشدة.

كيفية التنزيل للشرع، مطلوبة من الخاصة

إذن هذه الدعوة بهذا المعنى، مطلوبة أساسًا من الخاصة أكثر مما هي مطلوبة من العامة، لأنها تقوم أساسًا على الاجتهاد وليس في مقدور الجميع، أما الأولى، أي الدعوة بالمفهوم الأول، فمطلوبة من الجميع، ومقدور عليها من الجميع. هذه الدعوة بمعنييها، الحاجة فيها إلى العلم كحاجة الكائن الحي إلى الهواء والماء، فحاجة الدعوة الإسلامية إلى العلم كحاجة الكائنات الحية إلى الهواء والماء الذي جعل الله منه كل شيء حيًّا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠). معنى هذا الكلام أنه لا حياة للدعوة ولا وجود لها ولا نمو لها ولا كمال لها إلا بالعلم، ولا يمكن أن توجد أساسًا إلا بالعلم، ولا يمكن أن تنمو إلا بالعلم، ولا يمكن أن تبلغ أشُدَّها وتنتهي إلى غاياتها إلا بالعلم أيضًا... لِمَ ذلك؟ لأن الدعوة تقتضي مدعوًّا إليه وهو الشرع، وهذا المدعو إليه محدد في النصين: كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، وهذا المدعو له لابد من العلم به أولا وقبل كل شيء. ولتوضيح ذلك: المدعو إليه

يمكن تصنيفه صنفين كبيرين؛ صنف هو جزئيات الدين وكلياته أحيانًا، وصنف هو الدين كله، والعلاقة بينهما كالعلاقة بين الدعوة بمعنى النداء، والدعوة بمعنى التنزيل في الواقع. نفس تلك العلاقة تقريبًا، توجد كذلك فيما يدعى إليه؛ فهناك من يدعى إلى جزئية من الدين: يدعى إلى الصلاة، إلى الزكاة، إلى الصيام، إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إلى ابتسامتك في وجه أخيك، يدعى إلى أي شعبة من شعب الإيمان... كل ذلك مطلوب كما يقول ﷺ: "مَن دعا إلى هدىً، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنقص ذلك من أجورهم شيئًا" (رواه مسلم)، معناه أيُّ هدىً على أيّ درجة كان هذا الهدى محدَّدًا في شيء واحد غليظ أو رقيق، أو كان كبيرًا أو صغيرًا في أشياء متعددة. هذه دعوة لجزئيات الدين، ولكن هناك دعوة أشمل من هذا تنسجم مع الدعوة بالمفهوم الثاني، هو الذي أشار إليه الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾(الشورى:١٣)، ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾؛ هاهنا لا يوجد أمر بجزئيٍ من جزئيات هذا الدين، بل هناك أمر بإقامة الدين كله جملة وتفصيلاً في الواقع على أحسن صورة تتصور. فإقامة الدين ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ قِسْمها على إقامة جزء من الدين كإقامة الصلاة، فكما تقيم الصلاة على أحسن صورة، فعليك أن تقيم الدين على أحسن صورة. إلا أن إقامة الدين تقتضي العلم به وفهمه في حدوده الدنيا والعليا، والدين محدد الدلالة في نصوص كثيرة، ومن أجمعها حديث جبريل عليه السلام، فالإسلام من الدين، والإيمان من الدين، والإحسان من الدين، ولذلك قال ﷺ: "فإنه جبريلُ أتاكم يعلّمُكم دينَكم" (رواه مسلم). فإن الدين الذي يدعى إليه إما أن يكون جزءًا من هذا الدين، وإما أن يكون من الدين كله، ولا يدعى إلى جزء من الدين، أو إلى الدين كله دون علم بهذا الشيء، هل يتصور هذا عقلاً؟ وهل يتصور هذا واقعا؟ لابد من أصول العلم بما يدعى إليه قبل الدعوة إليه، وإلا دعوت إلى شيء غامض غير معلوم أو مجهول لا يتصور. وفي هذه الحالة لن يستجيب لك أحد لأنك تدعوه إلى ضلال. والدعوة، المطلوب فيها أن تكون على بصيرة وعلى نور وعلى وضوح، كأنك تبصر الأمر بعينيك. فمن هاهنا ليست الدعوة مطلقة ولكنها مقيدة بالعلم لأنها على بصيرة، أي مقيدة بالبصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾(يوسف:١٠٨).

> **فلْيَجعَلْ كلُّ مسلم نفسه مدرسةً، ليجعل من نفسه مدرسة لنفسه ولغيره؛ إن المسلم بحُكْم إسلامه، في موقع الإرسال لا في موقع الاستقبال، ولكنه لن يستطيع الإرسال إلا إذا امتلأ وفاض، إلا إذا امتلأ علمًا ثم صار كالنبع الفياض يخرج منه العلم والإيمان.**

أسس تحصيل العلم الشرعي والفقه الدعوي

إن الدعوة في حاجة كبيرة إلى العلم بالشرع، والفقه بكيفية تنزيله في واقع معلوم، إلا أن هذا العلم يحتاج إلى أسس يقوم عليها، وهذه الأسس هي:

١ – إخلاص الدين لله ﷻ: ﴿أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(الزمر:٣)، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(البينة:٥)، وفي الحديث الشريف: "أخلِصْ دينَك يَكْفِك العملُ القليلُ" (وراه الحاكم)، وأخلص دينك معناه: خلِّصْه من الشوائب التي تمنع قبوله، إذ كل عمل تسرَّبتْ إليه شائبة شرك لم يُقبَلْ، ولم يكنْ عبادةً لله، لأن الله ﷻ أَغْنى الشُّركاء عن الشرك.

٢ – الاجتهاد في تحري الإصابة للحق والصواب باتباع السنة: أيْ أن مقتضى "لا إله إلا الله"؛ إخلاصُ الدين لله، ومقتضى "محمد رسول الله"؛ تَحَرّي السنة. والسنة في زمانه ﷺ هي ما نقل إلينا، أمّا ما جدَّ ويجدُّ بعد زمنه ﷺ، فهو ما يُجتَهد فيه لإصابة السنة بالاجتهاد الشرعي انطلاقًا من كتاب الله ﷻ وانطلاقًا من سنة رسول الله ﷺ، وعلى هذين الأساسين يقوم العمل، أي العمل الذي فيه سد الحاجة.

٣ – قراءة الكون قراءة ربانية: وهذه القراءة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١)، فإن الأمر بالقراءة مقيد بهذا القيْد: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وهاته اللفظة لفظة "بِاسْمِ اللهِ" هي منهاج كامل يضع جمارك تَمنَع استقبال ما لا ينبغي، وأيضًا تمنع إرسال ما لا ينبغي. وهذا من أسرار

الحرص على ذكر اسم الله في كل شيء.

وفي زماننا أيضًا صوَرٌ من قيام الأمور باسم غير الله وذلك مفسد للعبادة، إذ لا عبادة إلا إذا كانت بـ"اسم الله"، أي على ميزان الله، لأن "باسم الله" تعني الاستئذان، وتعني التبرّؤ من الحَوْل والطَّوْل، وتعني أن "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وقبْل ذلك أنت مستأذِنٌ لله في ذلك الفعل الذي فعلتَه، وحسَب الفعل تكون قيمةُ "باسم الله". ومن هنا صار الذبح الذي لم يُذكَر عليه اسم الله حرامًا: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(الأنعام١٢١). القراءة بـ"اسم الله" هي المنطلق في صياغة النموذج المطلوب الذي به تتم الشهادة على الناس، ومنه تتكون الأمة الشاهدة على الناس بعدما أصابها ما أصابها. هذا هو المنطلق في إعادة إنتاج مثل هذا النموذج من جديد، وهو المنطلق أيضًا في إنتاج بيئة عامة كذلك، داخل دائرتها يعيش ويتنفس هذا النموذج، إذن هو أمر موجَّه إلى الأمة جملة.

المؤسسات التعليمية والقراءة باسم الله

ويمكن تحقيق هذا الأمل: أمل صياغة النموذج المطلوب، بالدفع في اتجاه تعليم العلم الشرعي بكل الوسائل الفردية والجماعية في جميع الأمكنة، بجميع الطاقات، بجميع الوسائل للدفع في هذا الاتجاه: اتجاه إقراء الأمة "باسم الله"، إقراء الأمة أو بقايا الأمة، إقرائها "باسم الله"؛ أي تعليمها الإيمان والفهم لقراءة كل شيء باسم الله. هذا الدفع في هذا الاتجاه في غاية الأهمية للانطلاق الصحيح، وتهيئة المناخ الطبيعي الذي يتنفس فيه النموذجُ الذي يجب صياغته من أجل إعادة الأمة الشاهدة إلى الأرض، ونقلها من واقعها الآن إلى موقعها الرفيع الممتاز، هذا الإقراء ينبغي أن يُدفَع فيه عن طريق الجهود الجماعية، والجهود الفردية، والمؤسسات العامة، والمؤسسات التعليمية خاصة.

هذا توجه إستراتيجي في السير البعيد المدى وليس من نوع ما يُفعَل فينقطع أثره في زمن قصير، أو يتجه إلى دائرة صغيرة، بل هو تأسيس للميدان كله وتحضير للأرض كلها، هذا ضروري ويجب أن يُفقَه هذا الأمر، ويُجتهَد فيه، سواء في الصورة العصامية حين يتجه المرء إلى نفسه ليُعدَّ نفسه -والله يعينه- أو حين يتعاون مع غيره على البرّ والتقوى في صياغة هذا النموذج، ذلك أيضًا مطلوب لتحضير المحيط العام. فالدفْع في هذا الاتجاه قدْرَ الطاقة، أساس الانطلاق؛ الانطلاق الفردي والجماعي، وأساسٌ كبير في اتجاه تلبية حاجات الأمة إلى العلم. فلْيَجعَلْ كلُّ واحد منكم نفسه مدرسةً، ليجعل من نفسه مدرسة لنفسه ولغيره؛ إن المسلم بحُكْم إسلامه، في موقع الإرسال لا في موقع الاستقبال، ولكنه لن يستطيع الإرسال إلا إذا امتلأ وفاض، إلا إذا امتلأ علمًا ثم صار كالنبع الفياض يخرج منه العلم والإيمان... فهذا ما أقصده بأن يجعل من نفسه مدرسة لنفسه ولغيره، ليجعل من بيته مدرسة، ليجعل ممن معه مدرسة للإقراء "باسم الله"، ليجعل من موقعه في التعليم العام والخاص مدرسة للإقراء "باسم الله".

الدفع بهذا الاتجاه بأقصى جهد، هو دفعٌ للأمة لسدّ حاجات أساسية كحاجة الماء والهواء، وحين نقول: حاجةُ هذه الأمة، فهي حاجةُ الدعوة الإسلامية.

بعد ذلك تحتاج الأمة الإسلامية إلى مستوى آخر، به تفعل الفعل التاريخي المطلوب، وطريق تلبية هذه الحاجة هو الدفع في اتجاهات ثلاثة كبيرة جدًّا بالنسبة لأهل العلم في الأمة:

الدفعُ في اتجاه التجديد في العلوم الشرعية، والدفع في اتجاه الآدمية في العلوم الإنسانية، والدفع في اتجاه النفعية في اتجاه العلوم المادية، وذلك يكون بتصنيف القارئين باسم الله الذين فَقِهوا هذا الدين، وفَقِهوا تخصصاتهم لاستيعاب ما هو كائن لدى الأمة ولدى غير الأمة، لأنه بالفعل الحضاري المرشح بحكم مستواه لأن يقتبس منه الغير، والمرشح فاعلُه للإمامة على الناس يقع التغيير الحضاري الراشد.

هذا الفعل لابد أن يكون علميًّا، ولا يكون علميًّا حتى يُستوعب الموجود استيعابًا كاملاً تحليلاً وتعليلاً سواء في العلوم الشرعية، أو العلوم الإنسانية، أو العلوم المادية، ثم تقويمها، ثم أخيرًا أسلمتها، أي بناؤها بناءً وفق توجيه الدين، وذلك بجعل علم الدين مهيمنًا عليها موجِّهًا لها. وبذلك الفعل الحضاري تستحق الأمةُ الإمامةَ والشهادة على الناس. هذا أفقٌ بعيدٌ، ولكن ينبغي السير فيه من الآن، لأن العلم بالاتجاه والهدف في غاية الأهمية للدفع في ذلك الاتجاه. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. محمد باباعمي*

الطبائع البشرية تتهذب في مدرسة "الدين" وتتروض وتعلو وتسمو، ويتعرف المنتمون إليها على حقيقتهم الإنسانية وجوهرهم الإلهي. وهي مدرسة يصطف فيها الكبار والصغار والشباب والشيوخ والرجال والنساء... فيها يتعلمون طمأنينة النفس، ويفعمون بالأمن والسلام. أما الذين فاتهم الانتساب إلى هذه المدرسة، ففي الخسران وقعوا وأنفسَهم ضيّعوا.

* * *

(الموازين)

يا معلِّمي العالَم ارشدوا

أحيانًا يعوزنا التعريض فنلوذ بالتوضيح، وأحيانًا لا يُجدي التلميح فنضطر إلى التصريح، وفي جميع الأحوال، المقصد هو أن نلتقي في نقطة المعنى ونرتقي إلى علو الفهم والإدراك ثم الوعي... وبخاصة لو تأملنا بجدية حالنا ووضعنا وما نحن فيه وما نحن صائرون إليه، لا بعين الناقم ولا بعين البليد، بل بنظر المسؤول الحديد، وبمنطق "عَرْض العمل على التفتيش". والمفتش الأول خبير بصير، عليم حكيم، ثم يليه مفتش حليم حكيم هو صاحب الفضل علينا عليه الصلاة والسلام، ثم يُعرض عملُنا على كل قلب وعقل يغرس فتيله في محبرة الإيمان ويستنير من نور اليقين.

أليس هو القائل جل من قائل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(التوبة:١٠٥).

من المهم والأكيد أن نجتهد في فتح المدارس، ومن الاجتهاد والصبر أن نداوم على سيرها وتحسينها، ومن الجهاد والهجرة أن نسمو بها رويدًا رويدًا نحو ذروة الكمال البشري، ولذا كان المعلِّم والمدرس هما رمز البطولة وعنوان الأمل.

لكن الأهم من ذلك أن نديم المقصد والمعنى جنبًا إلى

جنب مع الشكل والمبنى، فلا يضيع من بين أيدينا هدفٌ ولا رسالة ولا غاية حتى وإن لقينا حتفنا، وتجرعنا الأمرَّين، وذقنا المحنتين... "فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط" (رواه مسلم).

في هذا الشأن، ولهذا الغرض، وبهذا النفَس، أطللتُ اليوم مرة أخرى على ملف التعليم، وعلى التربة الخصبة لبناء الحضارة، راجيًا من القارئ الصدوق ومن العامل المشوق، أن يتفاعل ويفعل لا أن ينفعل ويجبُن، أو يُعرِض ثم يبرّر. فأنا أُحسن الظن فيه، وأثق في جنابه، وأرجو النجاة من بابه.

لابد أن تكون مدارسنا ذات نفَس إيماني رباني، وذات بُعد إنساني كوني، ألدُّ أعدائها الكره وضيق الأفق والتصنيفات الضيقة.. لابد أن تكون مدارسنا مدارس إسلامية، بمعنى أن "الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية المبدئية للعالم (الروح والمادة)، ثم نتغلب على هذه الازدواجية".

وأبدأ مقالتي بهذه الملاحظة، مستصحبًا معلِّمًا خرّيتًا، وهو أحد الذين جلستُ إليهم طويلاً، وتشربتُ من معينهم سلافة الحق، واعتقدتُ إمامتهم مع مَن سواهم بحق وبصدق. وأعني به العلاَّمة "علي عزت بيجوفيتش" -رحمه الله تعالى برحمته الواسعة- فهو من مصادر المنظومة الأدلاَّء إلى جوار: مالك بن نبي، وفتح الله كولن، وعبد الوهَّاب المسيري... وغيرهم من الأئمة الهداة المهديين.

الصبيانية وروح العصر

يورد "بيجوفيتش" ملاحظة ينسبها إلى "يوهان هويزنجا" (Juhan Huizinga) يسميها بـ"الصبيانية" (Puerility)، وهي "أنَّ الإنسان المعاصر يتصرف بطريقة طفولية -بالمعنى السلبي للكلمة- أي بطريقة تتفق مع المستوى العقلي للمراهقة: تسلياتٌ مبتذَلة، غيابُ روح الفكاهة الأصيلة، الحاجةُ إلى أحداث مثيرة ومشاعر قوية، الميلُ إلى الشعارات الرنَّانة والاستعراضات الجماهيرية، التعبيرُ عن الحب والكراهية بأسلوب مبالَغ فيه، اللومُ والمدح المبالغ فيه، وغير ذلك من العواطف الجماهيرية القاسية".

وبإمكاننا أن نضيف إلى هذه المظاهر قائمة أخرى من السلبيات منها: العجزُ عن التركيز المتواصل، تشتت الذهن والتقلب بين المواضيع بأسلوب "تقليب القنوات"، "ذهنية الفايسبوك" بتعبير أحد باحثينا، التردد المبالغ فيه في اتخاذ القرار، الاعتناء المفرِط بالجزئيات على حساب المعاني الكبرى والكليات... إلخ.

مع ملاحظة أنَّ ذلك ليس سمة "للعصر" باعتباره "هذا العصر"، ولكنه مكتسَب ونتيجة وصناعة لظروف، على رأسها الواقعُ التربوي، والإعلام الجماهيري، واهتزاز منظومة الثقافة، وضعف التدين وسوء فهمه وتمثله؛ وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بمصطلح "الأفكار المطبوعة"، باعتماد قاموس ابن خلدون ومالك بن نبي.

والآن، إذا لم تسهم المدرسة بصفة مباشرة ومعلنة في "ترشيد" هذا "المتصابي"، وفي "إنضاج" هذا "المهدَّد بالتشتت والتشرذم والانهيار الجوَّاني"، فما دورها إذن؟ ولماذا أنشئت أساسًا؟ ما الفائدة المرجوة من الدروس والمحفوظات التي تلقِّنها تباعًا؟

من ضغط البرنامج إلى ضغط الروح

ماذا نفعل، هذا هو البرنامج، نحن مطالبون بإتمامه، وهذا هو المنتظر منا؟

هذه عبارة، أو مكُّوك من العبارات مجَّتها الآذان، وصدِئت منها القلوب، وتبلَّدت على إثرها الأحاسيس، وتغابت جرَّاءها العقول والأفئدة؛ وهي لطالما شُهرت مثل "سيف خشبي متآكل" أمام كل محاولة للإصلاح، وكل مبادرة للتغيير، كأنَّ "الضغط، والبرنامج، والمادَّة... ومرادفاتها صارت هي الآمر الناهي، وتحولت إلى بعبع مخيف أو حتى إلى إله يعبَد".

ولذا، سجَّل الأستاذ "علي عزت" هذه الملاحظة الجديرة وقال:

"في هذه الأيام، من الممكن جدًّا أن نتخيَّل شابًّا قد مرَّ بجميع مراحل التعليم، من المدرسة الابتدائية حتى الكلية، دون أن يكون قد ذُكر له بالضرورة أن يكون إنسانًا خيّرًا وأمينًا. فهو يتعلَّم أولاً أن يكتب ويحسب، ثم يدرس الطبيعة والكيمياء، وعلم الأعراق، والجغرافيا، والنظريات السياسية، وعلم الاجتماع... وعلومًا أخرى كثيرة. إنه يجمع عددًا هائلاً من الحقائق، وعلى أحسن الفروض يتعلَّم كيف يفكِّر، ولكنه

لم يستنر ثقافيًا أو روحيًا".

أي أنه عُلّم أن يكون "حيوانًا اجتماعيًا"، وفق قاموس "داروين" عُلّم أن يكون قرْدًا متطوِّرًا متحضرًا، لا إنسانًا مسؤولاً.

وفي هذا المعنى يُبدع "المسيري" حين يفرّق بين "الحقيقة والحقائق"، وحين يضع حدًّا فاصلاً "بين العقل الفوتوغرافي الغبي والعقل التوليدي الذكي"، ذلك أنَّ التعليم ينحو غالبًا إلى سرد الحقائق مشتتة، وعرض الجزئيات، وتحفيظ التفاصيل، مغفلاً الحقيقة والكليات والأسباب؛ أي إنه يتعامل مع "آلة تصوير"، و"مسجلة"، و"أم بي٣" (MP3)... يُنتظر منها أن تعيد ما خزِّن فيها، لا مع عقلٍ له القدرة على أن يبدع ويولِّد ويأتي بالجديد.

ويضيف فتح الله كولن: "في حقيقة الأمر، فشلُك في النظر إلى المسائل من خلال نظرة كلية، سوف يؤدي حتمًا إلى الإفراط أو التفريط...".

أيَّ تعليم نمارس؟

المنظومة المادية ذات نظام مغلَق لا يمكنها أن تنفتح على عوالم لانهائية، لأنها باختصار لا تؤمن إلا بالمحسوس والمحسوب، وبالمادي والمستدل عليه، أي إنها منظومة لو رُسمَت لكانت جسمًا على شكل رأس كبير، لا مكان للقلب فيه ولا للأحاسيس ولا للقيم.

وظلُّ المنظومة الغربية، مما يصل الشرقَ المولوع بالتقليد، هو صورةٌ مشوَّهة لأصل أعوج؛ فهنا نشاهد ما يشبه الرأسَ، وشيئًا شبيهًا بالعقل. وما من شك أن ظل الشيطان هو شيطان مشوَّه؛ فلا هو إنسان مكتمل الإنسانية، ولا هو شيطان مكتمل الشيطانية، والمقرَّر -عقلاً وواقعًا- أنَّ الظل دائمًا هو أهون وأسوء من أصله. يقول الأديب العالمي "فيكتور هيجو": "الأسد الذي يقلِّد أسدًا آخر، هو في حقيقة الأمر قرد".

ومن ثم جاء التعليم؛ الذي ورثناه من منظومة المستعمِر، كما ورثنا الملفّات الكبيرة الطويلة العريضة، التي نكتب عليها تقارير الدرس، بخطٍّ معيَّن، وشكلٍ معيَّن، ولغة ميتة معيَّنة مسبقًا... رغم أن الأصل اليومَ يعلن احتضاره وإفلاسه. ولقد شاهدنا ما حدث في أمريكا منذ أيام، مِن مقتل ثمانية وعشرين شخصًا، منهم تلاميذ، على يد شاب قتل والديه أولاً، ثم قضى على الباقين.

هذا الميراث يعتمد على "الشيء" و"المادة" و"التقنية" و"المعلومة"، أي هو حريص على "صناعة" الإنسان الذي سينتج ويصنع ويقول "نعم" إذا اقتضى الأمر؛ وهو يدير ظهره "لله" و"للإنسان" و"للكون" و"للقيم" و"للفن" و"للأخلاق"...

ولذا، فإن التعليم بهذا المدلول وبهذه الخلفية الكونية، لا يمكنه أن يرتقي بالناس، ولا أن يجعلهم أفضل مما هم عليه، أو أكثر حرية، أو أكثر إنسانية... "إن هذا العلم يجعل الناس أكثر قدرة، أكثر كفاءة، أكثر نفعًا للمجتمع، ولقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم، بل يمكن أن يكونوا أيضًا خدامًا للشر، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة".

هذا حكمٌ على الأصل، فما هو القول في الظل والفرع، الذي يعيق الكفاءة باسم العصر، ثم يقتل الإنسان باسم التطور؛ فلا هو -مثل سيده- يحقق القدرة على الإنتاج والصناعة، ولا هو مثل أجداده يحقق الذات الحضارية ويعبِّر عن الحرية والوجود الواعي.

لاإنساني!

من مصطلحات العصر النمطية، التي تلاك مثل العلك أو حتى مثل مطاط قذِر على الألسن غير الذواقة، مصطلح "إنساني"، فهذا إنساني، وهذا ليس إنسانيًا، ومن ثم كانت العفة "لاإنسانية" لأنها تكبِّل الحرية، وكان الفجور "إنسانيًا" لأنه يعبّر عن الحرية... والحق أن هذه المرجعية الإنسانية يجب أن تُضبط بمعيار، وإلا اعتبر إبادة شعب كامل "إنسانيًا"، وقتْل ظالم مستبدّ متسلط "لاإنسانيًا" كما هو الحال اليوم في "قاموس الإعلام الببغائي".

ومن الصواب القول: "إن تدريب البشر على أن يكونوا مجرَّد منتجين، وتنظيمهم في صفوف المواطنين الصالحين (المصفِّقين)، هو أيضًا لاإنساني". ومن التحقيق اعتبار التعليم "لاإنسانيًا":

- إذا كان قائمًا على تلقين تعاليم حزبية.
- إذا لم يكن يعلِّم الفرد كيف يفكِّر بطريقة مستقلة.
- إذا كان يقدِّم إجابات جاهزة، ويقتل روح السؤال والشك وحيرة الذات.
- إذا كان يعِدُّ الناس فقط للوظائف المختلفة بدلا من توسيع أفقهم.

• إذا كان يستعير الصاع من عدوّه ليكيل دقيقه.

• إذا كان يفصِم الإنسان عن ذاته، ثم يُلبسه ذواتًا مشوَّهة، ويعرِضه في سوق النخاسة أو على مسرح عرائس القراقوز.

• إذا كان مجرَّد بوق لنظريات وأطروحات جاءته من الغرب ومن الشرق، بلا روية ولا مشاركة حسب المفهوم الخلدوني: "ولع المغلوب بالغالب".

• إذا كان يزرع إلى جوار المعلومة حزمةً من اليأس والقنوط، ويقنع التلميذ ظلمًا أنه حقير ودنيء وسيء الحظ، وأنه لا يصلح لشيء ولا حتى ليُرمى في الزبالة مثل القشّ...

فلينظر كلٌّ منّا كم هو تعليمنا "إنساني"، وكم هو غير إنساني؟ وكم نحن جادون أو غير جادين في "أنسنة التعليم"، بروح ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠).

كان محقّقو محاكم التفتيش في الماضي، يزعمون أنهم يُحرقون الجسد لكي ينقذوا الروح، أمّا المحقّقون المعاصرون، فإنهم يفعلون العكس؛ يحرقون الروح ويبقون الجسد.

إحراق الروح بديلاً عن الجسد

من منطلق الفهم الواعي، ومن نافذة المنظومة التوحيدية الرشيدة، يتقرر لدينا أنَّ كل شيء يحطّ من كرامة الإنسان ومن شخصيته، أي يشيّئه (يحيله إلى شيء) بتعبير مالك بن نبي، أو يحوسله (يحوّله إلى وسيلة) بتعبير المسيري، كلُّ ما كان سببًا في ذلك، هو "لاإنساني" بامتياز.

مثلاً، من الإنسانية أن نعتبر الإنسان مسؤولاً عن أفعاله ونحاسبه عليها، وليس من الإنسانية أن نفرض عليه إرادتنا ونعتبر أنفسنا وكلاء عليه... والحق أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه، نُفِيَ عنه أن يكون وكيلاً على أحد: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(الزمر:٤١)، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾(يونس:١٠٨)، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾(الأنعام:٦٦).

وليس إنسانيًا أن نجبر أيّ إنسان على أن يتذلل حتى يُصفح عنه، باسم القانون، أو المصلحة العامة، أو حتى الأجر والمثوبة، لأن الذلّ ذاته حرام في عرف الشرع الحكيم.

ثم إنه من الإنسانية أن يعاقَب إنسان بسبب أخطائه، وليس من الإنسانية أن يجبر على التخلي عن معتقداته أو التبرؤ منها... ولذا "فهناك عقوبات إنسانية، وعفو هو أكثر شيء لاإنسانية".

والقاعدة الكلية التي نستنبطها من هذا السياق ونسقطها على سياقات أخرى، منها سياق التربية والتعليم، والمدرسة والجامعة، والمسجد والمنبر، والمتجر والسوق... تأتي من الملاحظة الآتية: "كان محقّقو محاكم التفتيش في الماضي، يزعمون أنهم يُحرقون الجسد لكي ينقذوا الروح، أمّا المحقّقون المعاصرون، فإنهم يفعلون العكس؛ يحرقون الروح ويبقون الجسد".

والتعليم اليوم، هل هو من النمط الأول، أم هو من النمط الثاني، أم أنه يحيي الروح لأنها هي حقيقة الإنسان، ويربي الجسد لأنه هو الحامل للروح، ويخاطب التلميذ من جميع منافذه على حدّ تعبير المجدد محمد فتح الله كولن: من قلبه، ومن عقله، ومن جوارحه، ومن إلهاماته، ووجدانه، وذوقه... إلخ.

وإذا ما علمنا أنه في "هوليوود توجد أكبر نسبة من الأطباء النفسانيين في العالم"، وأنه "في صفوف الجامعات" في أمريكا يوجد أكبر نسبة من المنتحِرين، تيقّنا أن الجسد الرشيق والعقل الجبّار، لن يُغنيا شيئًا إذا ما فُصلا عن الروح، وإذا ما أعدَّا "للذة والمتعة" الآنية المتناهية.

فهل نعدُّ تلاميذنا ليكونوا مثل هؤلاء؟

لنصدُق أنفسنا، وقبل ذلك لنكُن صادقين مع الله سبحانه.

لماذا هذه الوقفة؟

لا شك أن هذا النقد لا يُقصد منه تعميمُ الحكم، فنسبة الغلوّ في المادة والانفصال عن الروح، تتفاوت من بلد لبلد، ومن مدرسة لمدرسة، بل من قسم لقسم، ومن معلّم لمعلّم، ولا تنكَر المبادرات الكثيرة التي تبذل هنا وهنالك، في الشرق وفي الغرب على السواء، لكنَّ نقدَنا للحضارة، أو لما يُعرف بالتقدُّم المادي كما يقول بيجوفيتش: "ليس دعوةً لرفضها، فالحضارة لا يمكن رفضها حتى لو رغبنا في ذلك. إنما الشيء الوحيد الضروريُّ والممكن هو أن نحطِّم الأسطورة

التي تحيط بها. فإنَّ تحطيم هذه الأسطورة سيؤدي إلى مزيد من أنسنة هذا العالم، وهي مهمة تنتمي بطبيعتها إلى الثقافة".

وأقول: لو قدِّر لي يومًا أن أعود إلى مجال "التنظير والتفعيل التربوي"، لحمدت الله أولاً على ما تم ويتم من فعل إيجابي هنا وهنالك، ولكن كذلك، سأعمل على أن أؤسِّس مدرسة أو مدارس تتجاوز "البرنامج" و"المقرَّر" و"الشهادة"... مدركًا أنّ ثمة قناعة من المحيط العام ترفض هذا المنحى، ولكن سأحاول، وسأجمع فيها بين "التعلُّم والتأمل والتفكر"، وسأخاطب القلب إلى جوار العقل، وسأجعل الحرية هي مدار الرحى.

وما من شك أنّ الوصول إلى هذا المطلب، لا يمرُّ إلا عبر التغيير التدريجي، والمرحلية الواعية، ولذا أعيد وأكرّر: ليس هذا نفيًا لما مضى، ولكنه التذكير بأنَّ الوقوف في أيّ محطة والانتهاء إليها، هو بداية السقوط، وهي نقطة العودة والانتكاس. وما من شك أنني سأفتح مدرسة -لو قدِّر لي ذلك- تخرِّج الناس على كتاب الله علمًا وعملاً، وعلى منهج السنة الطاهرة موضوعًا ومنهجًا، ثم على أساس الفهم الصحيح للأعلام الأدلاَّء اعتبارًا وتمثُّلاً.

لابد أن تكون مدارسنا ذات نفَس إيماني رباني، وذات بُعد إنساني كوني، ألدُّ أعدائها الكره وضيق الأفق والتصنيفات الضيقة، فلا هي بالمدارس الإسلامية في روحية باهتة، ولا هي مدارس على نمط مادي أرضي، لكنها مدارس إسلامية، بمعنى أنّ "الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية المبدئية للعالم (الروح والمادة)، ثم نتغلب على هذه الازدواجية".

وبحقيقة "أنَّ الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرَّماته ولا من جهود النفس والبدن التي يطالب الإنسان بها، وإنما من شيء يشمل هذا كله ويسمو عليه من لحظة فارقة تنقدح فيها شرارةُ وعي باطني... من قوّة النفس في مواجهة محن الزمان... من التهيؤ لاحتمال كل ما يأتي به الوجود... من حقيقة التسليم لله... والاسم إسلام".

ولعل المدارس الأولى سيكون أسماؤها، حسب منطلقات مناهجها، لا مجرَّد شكل وعمارة، بل روح وعمارة، مستقاة من هذه الأسماء الخالدة: مدرسة علي عزت بيجوفيتش، مدرسة مالك بن نبي، مدرسة فتح الله كولن، مدرسة عبد الوهاب المسيري... ثم...

استدراك

مهلا، لعل الموجود بحول الله تعالى -وهو في الطريق الصحيح- سيحقِّق هذه المطالب، ولسوف يرتقي هذا الأفق، بل أكيدٌ أنه سيفعل، والله تعالى معه... وهو -فيما نحسب- لا يفرِّط في شيء، ويصل الليل بالنهار لبلوغ المقصد، وتحقيق المراد.

هنالك فقط، لا حاجة للتفكير في الجديد، ولكن الواجب يملي التركيز على التجديد.

والتجديد والتغيير... مفهومان ديناميكيان... لا يتوقفان؛ وإن كانا يرتكزان على محور ثابت، وعلى مرجعية صلبة.

ولقد -والله- ضربت "مدارسنا" أروع مثال، من يوم نشأتها، على يد رجال خلَّص مهاجرين؛ رغم قلَّة ذات اليد، وبعد الشقَّة، ووهن الوعاء، وهشاشة النسيج... ولذا أخصُّ هؤلاء بالتحية مع شيء من "الوزَع القوي" وأقول: "نعم... ولكن".

نعم لما تحقّق... ولكن، ما بقي هو أكثر وأكبر... حتى نبسط الخير على العالم أجمع!

ثم إني أشير بالإصبع إلى مشروع "الخدمة"، في جبهته التربوية العالمية، بعبارة واضحة، وبخاصة بعد زياراتي العديدة عبر العالم، كان آخرها "أستراليا" وأقول:

إن جميع ولائنا لكِ، ولقد تعلَّمنا بحقٍّ أن نكون خدَّامًا في صفوف "الخدمة"، فهي منارةٌ لنا وللعالم أجمع... ولذا نؤمن بأن ما أنجزته وما أبدعته هو "من صلب ذاتنا الحضارية"، وبالتالي، كما نقول عن المدارس الرسمية في وطننا، وعن المدارس العلمية، والحرَّة، والصديقة... وغيرها: "هذه مدارسنا"... نقول بصراحة، عن مؤسَّسات "الخدمة"، وعن فكر "الخدمة":

هذا فكرنا، وهذه مؤسَّساتنا، وهذه أمَّتنا... فالحمد لله أن أرانا اليومَ الذي اكتحلت فيه أعيُنا بمثل هذه الصروح الحضارية، ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحجرات:٨)، ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(الدخان:٥٧).

سلامي إلى الإخوة القائمين على مؤسسات التعليم... في جميع أصقاع العالم...

ولا أقول لهم اليومَ: "يا عمَّال العالم اتّحدوا..."، فلقد مضى أوانها واهترأ بنيانها، ولكن أقول:

"يا معلِّمي العالم أرشُدوا...

يا معلِّمي العالم ارشدوا...". ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

د. عبد الدائم الكحيل*

مرور البرق
بين العلم والإيمان

لقد بينت التجارب الجديدة أن أية ومضة برْق، ليست مستمرة كما نراها، بل تتألف من عدة أطوار، أهمها طور المرور وهو الشعاع الذي يمرّ ويخطو من الغيمة باتجاه الأرض، وطور الرجوع وهو الشرارة التي ترجع باتجاه الغيمة. وهذا يعني أن شعاع البرق يمرّ ثم يرجع خلال زمن غير مدرك بالعين المجردة، وهذا الزمن يقدّر وسطيًّا بعشرات الأجزاء من الألف من الثانية.

يقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام متحدثًا عن ظاهرة البرق: "ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين" (رواه مسلم)، ففي هذه الكلمات معجزة علمية شديدة الوضوح، خصوصًا إذا علمنا أن العلماء يستخدمون الكلمة ذاتها التي استخدمها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال تعبيرهم عن طوري المرور والرجوع، وأن هذين الطورين يستغرقان مدة من الزمن تساوي الزمن اللازم لطرفة العين.

ظاهرة البرْق

إن الحديث عن ظاهرة البرق ظلَّ مرتبطًا بالخرافات والأساطير لآلاف السنين، وفي الزمن الذي عاش فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم -أي في القرن السابع الميلادي- لم يكن لأحد أي علم عن العمليات التي تحدث داخل البرق.

فقد أثبتت التجارب أن هنالك عمليات فيزيائية وكيميائية دقيقة تحدث داخل شعاع البرق، وهي اليوم محلّ اتفاق من قبل جميع العلماء. ويمكن رؤية هذه العمليات اليوم بفضل الكاميرات الرقمية المتطورة، كما يمكن اعتبار وجود هذه العمليات كحقائق يقينية لا شكّ فيها. وعلى الرغم من التطور التقني الكبير لهذه الأجهزة تبقى المراحل الدقيقة جدًّا للبرق لغزًا محيرًا للعلماء.

ففي ظل الظروف السائدة داخل شعاع البرق، لا يمكن لأي جهاز أن يتحمل الحرارة الهائلة والتوتر الكهربائي العالي

جدًّا. فدرجة الحرارة في مركز شعاع البرق تصل إلى ٣٠ ألف درجة مئوية، أي خمسة أضعاف حرارة سطح الشمس.

إن التوتر الكهربائي الذي تولده ومضة البرق الواحدة يصل إلى ملايين الفولتات، وبالتالي تُعتبر دراسة البرق من أصعب أنواع الدراسة التجريبية وأكثرها تعقيدًا، وذلك لأن زمن المراحل التي تشكل ومضة البرق من مرتبة المايكرو ثانية، أي من مرتبة الجزء من المليون من الثانية، وهذا الزمن ضئيل جدًّا وصعب الإدراك.

ظلت ظاهرة البرق حدثًا محيّرًا للعلماء على مدى قرون طويلة، ونُسجت الأساطير الكثيرة حول البرق وتأثيراته؛ فكلّ حضارة كانت تنظر إلى هذه الظاهرة على أنها حدث مقدس يرتبط بالآلهة، وكل حضارة كانت تحاول إعطاء تفسير لهذا الحدث المرعب.

ففي الأساطير الإغريقية -مثلاً- كان التفسير المقبول وقتها لدى علماء القرن السابع، هو أن البرق كان سلاحًا للإله "زيوس" (Zeus) الذي استخدمه لتخويف أعدائه والانتقام منهم. وحتى عهد قريب كان الناس يعتقدون في أوربا بوجود هذا الإله الذي يسمونه "صانع البرق".

ومنذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي وحتى يومنا هذا، قام العلماء بآلالف التجارب في سبيل فهم ظاهرة البرق. ففي عام ١٧٤٦ بدأ العالم "بنيامين فرانكلين" تجاربه حول الكهرباء، ثم اقترح أول تجربة علمية منظّمة أثبت من خلالها الطبيعة الكهربائية للبرق، وأن البرق ما هو إلا شرارة كهربائية ناتجة عن التقاء شحنتين كهربائيتين متعاكستين. في عام ١٧٥٣ قام الفيزيائي السويدي "رتشمان" بتجربة حول البرق أثبت فيها أن الغيوم الرعدية تحوي شحنات كهربائية. واستمرت التجارب، ولكن المعرفة بالبرق بقيت متواضعة حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما أصبح التصوير الفوتوغرافي ممكنًا. لقد بدأ التصوير الفوتوغرافي للبرق عام ١٩٣٥ في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن أجهزة التصوير كانت بطيئة، وبقيت العمليات الدقيقة التي ترافق ظاهرة البرق مجهولة حتى الستينات من القرن العشرين. حيث أمكن استخدام التصوير السريع والمراكب الفضائية والرادارات والحاسوب لمعالجة ودراسة البيانات التي قدمتها مختبرات مراقبة البرق.

وهكذا استطاع العلماء أخيراً بفضل التصوير فائق السرعة والمعالجة الرقمية للبيانات، أن يثبتوا أن ومضة البرق الواحدة قد تتألف من عدة ضربات، وكل ضربة تتألف من عدة مراحل أو أطوار. وقد تم قياس الأزمنة لكل مرحلة بدقة كبيرة، ورؤية هذه المراحل، ولم يتحقق هذا إلا في نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين.

أنواع البرق

يحدث البرق على عدة أنواع حسب مكان وجود الشحنتين الموجبة والسالبة. وأكثر الأنواع شيوعًا وأهمية، هو البرق الناتج من التقاء شحنتين متعاكستين بين الغيمة والأرض. فغالبًا ما تكون الغيمة ذات شحنة سالبة عند الجهة القريبة من الأرض، أما سطح الأرض فيكون ذا شحنة موجبة، ويسمي العلماء هذا النوع "برق غيمة-أرض".

أما النوع الثاني فهو ما يحدث بين غيمة وغيمة أخرى،

وبما أن الوسط الذي تتجمع فيه الغيوم يمتلئ بالحقول الكهربائية فإن احتمال تلامس الشحنات المتعاكسة والتقائها كبير جدًّا. ولذلك فإن البرق الذي يحدث بين الغيوم يمثل ثلاثة أرباع ومضات البرق، والتي تقدّر بمئة ومضة في كل ثانية وذلك في مختلف أنحاء العالم. ويعرف هذا النوع بـ"برق غيمة-غيمة".

أما النوع الثالث فهو ما يحدث بين الغيمة والهواء، حيث تكون الغيمة محمّلة بشحنة كهربائية، والهواء المحيط بها من أحد جوانبها يحمل شحنة معاكسة. وعندما تكون كمية الشحنات الكهربائية في الغيمة وفي الهواء كافية، ينطلق شعاع البرق ويحدث هذا النوع الذي يعرف بـ"برق غيمة-هواء".

هنالك نوع آخر وهو البرق بين الغيمة وطبقات الجو العليا، ويحدث هذا البرق بين الطبقات العليا في الغيوم الركامية وبين طبقة الأيونوسفير والتي تحوي حقلاً كهربائيًّا بشكل دائم.

وقد أمكن رؤية برق كهذا بواسطة أجهزة التصوير المثبتة على الأقمار الاصطناعية، مع العلم أن جميع أنواع البرق تحدث نتيجة التقاء شحنات متعاكسة.

وهنالك أنواع أخرى كثيرة نذكر منها ما يحدث داخل الغيمة ذاتها؛ وإن كل غيمة تحمل شحنة موجبة في أحد طرفيها، وتحمل شحنة سالبة في طرفها المقابل، وهكذا وفي ظروف العواصف الرعدية يحدث التلامس ويتحقق البرق الذي يضيء الأرض ولكنه لا يصل إليها.

كذلك هنالك برق يحدث في أشهر الصيف وآخر في الشتاء، وهنالك برق على شكل كرة، وبرق صفائحي وغير ذلك كثير. كما أن العلماء رصدوا برقًا على بعض الكواكب -مثل المشتري- أشد بمئة مرة من تلك الضربات على الأرض.

واليوم ومنذ عدة سنوات يعمل العلماء على دراسة ومراقبة البرق من الفضاء باستخدام تقنيات متطورة جدًّا، وقد توصلوا لحقائق كثيرة عن هذه الظاهرة، ولذلك يمكن القول إن الحديث عن آلية البرق في هذا البحث هو حديث عن حقائق قطعية الثبوت، لأنه لا يجوز لنا أن نبني تفسيرًا علميًّا لآية كريمة أو حديث نبوي شريف إلا على الحقائق اليقينية.

الغيوم الرعدية

إن البرق لا يحدث في أية غيوم، بل هنالك غيوم محددة يسمّيها العلماء بـ"الغيوم الرعدية"، وهي البيئة المناسبة لحدوث البرق، وقد تكون هنالك غيمة واحدة أو عدة غيوم وهو الأغلب.

وهذه الغيوم تكون عادة ممتلئة بالحقول الكهربائية بسبب الرياح التي تسوق جزيئات بخار الماء وتدفعه للأعلى، وتسبب احتكاك هذه الجزيئات بعضها ببعض، مما يولد هذه الحقول الكهربائية. في الوقت نفسه، تتجمع شحنات سالبة وأخرى موجبة في الغيمة، وغالبًا ما ترتفع الشحنات الموجبة للأعلى وتبقى السالبة في أسفل الغيمة من الجهة القريبة من الأرض.

لقد دلّت الدراسات أيضًا، أن هنالك فرقًا في الجهد الكهربائي بين سطح الأرض وطبقة الأيونوسفير يبلغ ٥٠٠ ألف فولت، وهذا الفرق ينتج بسبب التوزع العالمي للعواصف الرعدية، والتي تعتبر ضرورية للحفاظ على هذا الفرق.

من أين تأتي هذه الشحنات؟

إن الحديث عن الغيوم يعني الحديث عن الماء الذي تحمله هذه الغيوم، ونحن نعلم أن كل جزيئة ماء تتركب من ذرة أكسجين وذرتين من الهيدروجين. إن الشحنات السالبة تنتشر على ذرة الأوكسجين، أما الشحنات الموجبة فتنتشر على ذرتي الهيدروجين نتيجة لما يسمى "الرابطة الهيدروجينية" الموجودة في جزيئات الماء، وهذه الرابطة تشكل مصدرًا مهمًّا من مصادر الشحنات السالبة والموجبة والتي تنتشر في أجزاء الغيمة والهواء، والله تعالى أعلم.

ولكي نأخذ فكرة أوسع عن البرق الذي يحدث على الأرض، نتأمل بعض الإحصائيات الحديثة عن ومضات البرق على سطح الكرة الأرضية.

حقائق وأرقام

في كل ثانية هنالك مئة ومضة برق في العالم. وفي كل يوم هنالك ٨,٦ مليون ومضة برق. وفي سنة واحدة يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٢٠ مليون ومضة برق. كل ومضة برق تولد توترًا كهربائيًّا يتراوح من ١٠٠ مليون إلى ١٠٠٠ مليون فولت. كل ومضة برق تنتج تيارًا كهربائيًّا من ١٠ آلاف أمبير إلى ٢٠٠ ألف أمبير. إذا نظرنا للكرة الأرضية في أية لحظة، فإننا نرى فيها ٢٠٠٠ عاصفة رعدية تحدث في اللحظة ذاتها. إن البرق لا ينحصر في العواصف الرعدية، بل تمت مشاهدة بعض أنواع البرق في الأعاصير الكبيرة، وفي البراكين، وفي العواصف الثلجية الضخمة. يمكن أن تمتد شرارة البرق إلى أكثر من عشرة كيلو مترات أفقيًّا.

كيف يحدث البرق

نعلم من قوانين الكهرباء أنه عندما تلتقي الشحنات المتعاكسة ينتج عنها ومضة أو شرارة كهربائية، وهذا ما يحدث في البرق. فالغيوم تتكون نتيجة تجمع جزيئات البخار المرتفع من الأرض، هذه الجزيئات تكون محمَّلة بشحنات كهربائية موجبة وسالبة نتيجة تفاعلها واحتكاكها واصطدامها. وكما هو مقرر، غالبًا ما تكون الشحنات السالبة، في أسفل الغيمة من الجهة القريبة من الأرض؛ وسبب ذلك هو تأثير الجاذبية التي تقوم بدورها في توزيع الشحنات، وتكون الشحنة الموجبة في أعلى الغيمة، وهذا يحدث في ما يسمى بـ"الغيوم الرعدية" التي تسبب البرق دائمًا.

عندما يكون هنالك زيادة في عدد الإلكترونات في أسفل الغيمة، يتولد عن ذلك حقل كهربائي سالب، ويقابل هذه الزيادة في أعلى الغيمة نقص للإلكترونات ولذلك يتولد الحقل الكهربائي الموجب.

وعندما تتجمع كميات مناسبة من الإلكترونات في أسفل الغيمة، تنتقل هذه الشحنات السالبة بواسطة الهواء الرطب الموجود بين الغيمة وسطح الأرض، وتقترب من سطح الأرض ذي الشحنة الموجبة، عند ذلك تتشكل قناة دقيقة جدًّا في قاعدة الغيمة. وينطلق بعد ذلك عبر هذه القناة، ما يسميه العلماء "الشعاع القائد" (Leader) من الغيمة باتجاه الأرض، وهذا الشعاع الذي يمرّ ويخطو بخطوات متتالية هو أول مرحلة من مراحل البرق.

وعندما يصل هذا القائد إلى الأرض وبفعل الحقل السالب الذي يحيط به، يجذب إليه الشحنات الموجبة الموجودة بالقرب من سطح الأرض، وتتحرك هذه الشحنات الموجبة باتجاه الشعاع القائد وتصطدم به على ارتفاع عشرات الأمتار عن سطح الأرض، وتتشكل قناة اتصال بين الغيمة والأرض. عندها تنهار عازلية الهواء ويصبح ناقلاً للكهرباء، ويتولد تيار كهربائي قوي ينير على شكل ومضة باتجاه الأعلى يدعى "طور الرجوع" (Return Stroke)، وهذه الضربة الراجعة هي ما نراه فعلاً، لأن معظم الضوء يتولد عنها.

وتصل سرعة شعاع البرق في هذه الضربة الراجعة إلى ١٦٠ ألف كيلو متر في الثانية، وتستغرق وسطيًّا بحدود ٤٠ مايكرو ثانية، وتُنتج التيار الراجع والذي يقدر من ١٠ إلى ٢٠ ألف أمبير. وبعد ذلك تمر فترة توقف مدتها من ٣ وحتى ١٠٠ ميلي ثانية، ثم تتكرر العملية من جديد باستخدام القناة ذاتها والتي تم تأسيسها من قبل، وهكذا عدة ضربات.

حديث يفيض بالمعجزات

نأتي بعد هذه الحقائق العلمية لنرى الحقائق النبوية الشريفة، ونأتي لنعيش رحلة ممتعة مع كلام النبي الأميّ عليه صلوات الله وسلامه، الذي علّم العلماء، ونقارن ونتدبَّر دون أن نحمّل الحديث ما لا يحتمل من التأويل أو التفسير، ونتساءل: أليس هذا الحديث الشريف يطابق ويوافق مئة بالمئة ما توصل إليه العلماء اليوم؟

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وتُرسَل الأمانة والرَّحِم فتقومان جَنْبَتَي الصراط يمينًا وشِمالا، فيمرُّ أوَّلكُم كالبرق"، قال: قلت بأبي أنت وأمي، أي شيء كمرّ البرق؟ قال: "ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويَرْجِع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح ، ثم كمرّ الطير وشَدِّ الرجال ، تجري بهم أعمالهم، ونبيّكُم قائمٌ على الصراط يقول ربِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حتى تَعْجِزَ أعمال العباد، حتى يَجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا" (رواه مسلم).

إذا تأملنا قوله عليه الصلاة والسلام: "ألم تروا إلى البرق كيف يمرُّ ويرجع في طرفة عين؟"، نلاحظ أنه يتطابق مع ما كشفه العلم مؤخرًا. فقد انتهى العلماء -كما رأينا- إلى أن البرق ما هو إلا شرارة كهربائية ضخمة تحدث نتيجة تلامس الشحنة الكهربائية السالبة الموجودة في الغيمة مع الشحنة الكهربائية الموجبة الموجودة في الأرض ، وأن هنالك طورين رئيسيين لا يمكن لومضة البرق أن تحدث من دونهما أبداً ، وهما طور المرور وطور الرجوع .

وتأمل معي هذه المصطلحات العلمية، فكلمة "Step" التي يستخدمها العلماء للتعبير عن المرحلة الأولى تعني "يخطو أو يمر"، أما كلمة "Return" التي يستخدمها العلماء للتعبير عن طور الرجوع تعني "يرجع"، بما يتطابق مع التعابير النبوية الشريفة.

وهذا يدلُّ على دقة الكلام النبوي الشريف ومطابقته للحقائق العلمية بشكل كامل. ولكن ماذا يعني أن يستخدم العلماء اليوم التعابير النبوية ذاتها؟

إنه يعني شيئًا واحدًا، ألا وهو أن الرسول الكريم حدثنا عن حقائق يقينية وكأننا نراها، وذلك قبل أن يراها علماء عصرنا هذا. ويدل أيضًا على إعجاز غيبي في كلام هذا النبي الأمي عليه الصلاة والسلام.

فمن الذي أخبره بأن العلماء بعده بأربعة عشر قرنًا سيستخدمون هذه الكلمات؟ ولو كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد تعلَّم هذه العلوم من علماء عصره، إذن لجاءنا بالأساطير والخرافات السائدة والتي كان يعتقد بها علماء ذلك الزمان.

إشارة إلى زمن البرق

هنالك إشارة رائعة في الحديث النبوي إلى الزمن اللازم الذي تستغرقه ضربة البرق، فقد حدده الرسول الأعظم عليه وآله الصلاة والسلام، بـ"طرفة عين".

والعمل الذي قمت به ببساطة أنني بحثت في اكتشافات العلماء وقياساتهم الحديثة للزمن الذي تستغرقه موجة البرق ذهابًا وإيابًا، أي كم يستغرق البرق ليمرّ ويرجع؟

لقد وجدت بأن الزمن هو أجزاء قليلة من الثانية، ويختلف هذا الزمن من مكان لآخر ومن وقت لآخر. ومتوسط زمن البرق، هو عشرات الأجزاء من الألف من الثانية.

إذن، هل هنالك علاقة بين الزمن اللازم لضربة البرق، وبين الزمن اللازم لطرفة العين؟ وإذا كانت الأزمنة متساوية أو متقاربة إذن يكون الحديث الشريف قد حدَّد زمن ضربة البرق قبل علماء أمريكا بأربعة عشر قرنًا.

وكانت المفاجأة أنني عندما بحثت عن زمن طرفة العين والمدَّة التي تبقى فيها العين مغلقة خلال هذه الطرفة، وجدتُ بأن الزمن هو أيضًا عشرات الأجزاء من الألف من الثانية وسطيًّا، وهو ذاته الزمن اللازم لضربة البرق.

ووجدتُ بأن زمن ضربة البرق يختلف من غيمة لأخرى حسب بعدها عن الأرض، وحسب الظروف الجوية المحيطة، وحسب كثافة الغيوم ومدى تشبعها ببخار الماء، ولكن هذا الزمن يبقى مقدرًا بعدة عشرات من الميلي ثانية، وكذلك وجدتُ أن الزمن اللازم لطرفة العين، يختلف من إنسان لآخر حسب الحالة النفسية والفيزيولوجية والسن، ولكنه أيضًا يبقى مقدرًا بعدة عشرات من الميلي ثانية. ■

(*) باحث في الإعجاز العلمي والرقمي في القرآن والسنة / سوريا.

المراجع

1. MartinAUman,Lightning,CourierDoverPublications,1984.
2. Leslie Mullen, Three bolts from the blue, www.nasa.gov, June 8, 1999.
3. HughChristian,StevenGoodman,ObservingLightningfrom Space, www.nasa.gov, 1998.
4. Steve Goodman, A Lightning Primer, www.nasa.gov
5. Flash Facts About Lightning, National Geographic News, June 24, 2005.
6. Uman MA. All about lightning, New York: Dover, 1986.
7. Time Converter, www.csgnetwork.com.
8. Susan Chollar, In the blink of an eye, Psychology Today, March, 1988.

أ.د. فتحي حجازي*

علاج الداء
من معين سيرة سيد الأنبياء

١ البشرية الحائرة في جميع الأزمان في حاجة إلى ربّان، وقائد يهديها سواء السبيل، وحادٍ يقودها إلى السعادة السرمدية في حياتها الأولى والآخرة. فكان هذا القائد على الدوام رسول الله إلى عباده على مدى الأزمان حسبما يقتضيه الحال والمقام، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(إبراهيم:٤-٥).

ومر ركب الرسالات الإلهية على مدى الأزمان، فكل رسول يبعث فيبلغ رسالة ربه إلى عباده بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فمن آمن واهتدى واتبع سبيل الله مع رسول الله بَعُد عن الردى، ونال حظه في السعادة بالهدى.

ومن زاغ عن طريق مولاه وأعلن العصيان لرسول الله، فقد عرض نفسه للردى، وكسا حياته بالتعاسة والخسران والانحراف عن الهوى، كما قال ﷻ: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

وجاءنا مسك الختام، ورسول السلام، ونور الله في أرضه لجميع الأنام إلى يوم الدين، سيدنا ومولانا وشفيعنا محمد بن عبد الله من ولد عدنان، وذلك على فترة من الرسل، وقد صارت البشرية في نهايتها على مشارف الآخرة، في حاجة ماسة إلى رسول من الله يعدل مسيرتها في الحياة، ويرسم لها طرائق الآمال التي يرتضيها خالقهم لعباده في دنياهم، ويوم يقوم الأشهاد. وقد كان الناس في حاجة إلى هذا النبي، حيث انحرفت بهم مسالك الحياة، فعاشوا في ظلمات كقطع الليل المظلم، من قتلٍ، وسفك دماءٍ، ونهبٍ للأموال، وإتيان الفواحش، وحروب مدمرة، وفساد في الأخلاق عند كثير من الشباب، وانحلال تام في الحياة الإنسانية، فجاءهم رسول الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور... وحقًّا ما قاله أحد المحبين المخلصين:

لما أراد الله جل جلاله
أن ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى يا سيدي
فيضًا من الأنوار والرحمات

ويقول الأستاذ المربي الشيخ محمد فتح الله كولن -نفع الله به العباد في كل البلاد- ما ترجمته: «وكان ﷺ يحلّ أعقد المشاكل الاجتماعية بكل بساطة وسهولة، وبعده بثلاثة عشر قرنًا أشار "جورج برنارد شو" على هذه الحقيقة قائلاً: ما أحوج عصرنا إلى شخص مثل محمد ﷺ يحلّ له مشاكله، ريثما يشرب فنجانًا من القهوة، وهذا هو المهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء"[1].

وفي كلام "برنارد شو" إشارة إلى عودة الفتن التي غطت العالم لبعدهم عن منهاج السماء، وموت العلماء، وضعف الدين في نفوس الأحياء، فقد كثرت عليهم النعم، وانفتحت الدنيا وما فيها من كرم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وهذا الضلال هو الذي نراه الآن في ركب الإنسانية الحائرة وحياتها الخائرة.

البشرية الحائرة في جميع الأزمان في حاجة إلى ربّان، وقائد يهديها سواء السبيل، وحادٍ يقودها إلى السعادة السرمدية في حياتها الأولى والآخرة.

فشباب المسلمين قد خدعوا بمدنية الغربيين، وظنوا أنها جاءتهم بلا عمل ولا جهد، أو عرفوا أنهم يعملون، لكن الشباب لا ينظرون إلى الوسائل والبدايات، والمسالك الموصلة إلى الغايات، وإنما بروق المدنية الزائفة وما فيها من زخرف يأخذ بالعيون والألباب، فيندفعون نحوها، فيا ليت قومي يعلمون.

يا معشر الشباب انظروا إلى تاريخكم المشرف في بناء دولة الإسلام إبان العهد الذهبي الذي بناه سيد العالمين ورحمة الكائنات إلى يوم الدين، ترون شبابًا حول المصطفى الأمين ﷺ يفتدون رسولهم ودينهم بأرواحهم وأبدانهم وآبائهم وأمهاتهم طلبًا لعزة الله في هذه الحياة، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، فدانت لهم المشارق بما فيها من ممالك، والمغارب بما كانت عليه من سلاطين يتعاركون، وقد ساد بينهم التطاحن في ظلمات الجهل مع الشياطين، حتى سطعت أنوار الله عليهم فكانوا مسلمين.

فيا شباب الأمة، أنتم السواعد القوية لإقامة الحضارة الإسلامية، وبناء صرح الأمة المرضية، فكونوا عاملين على هذا السبيل... وهذا نبيكم الذي رباكم في بداية الأمر على هذا الخط المستقيم كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام:١٥٣).

ولقد رسم الله سبحانه، هذا السبيل في الآيات السابقة على هذه الآية فقال عز من قائل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(الأنعام:١٥١)، وهذا هو أول السبيل؛ توحيد الله الذي لا إله سواه، وأنه صاحب الخلق والأمر.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(الأنعام:١٥١)، وهذه صلة الرحم الأولى، بحيث لو نَمَتْ في روح الأمة، لرأيت أمة واحدة متناصرة، لها ثمراتها الطيبة.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(الأنعام:١٥١)، فالآية فيها عناية الآباء بالأبناء. وكانوا في الجاهلية يقتلونهم خوفًا من الفقر، أو كانوا فقراء فحماهم

الله تعالى بهذا التصريح، وأنه الرزاق ذو القوة المتين.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(الأنعام:١٥١)، وفي هذا النعي حفظ للإنسان نفسه عن كل ما يضره من الموبقات ظاهرًا وباطنًا، كالزنا، وشرب الخمور، وقول الزور، والحقد والحسد والعداوات... ونحو ذلك من الموبقات المهلكات للأمم والشعوب.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾(الأنعام:١٥١)، وهذا نهي عن قتل الإنسان لأخيه الإنسان، أو تخطي حدود الأدب معه في حال... فكل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه كما صح عن المصطفى المعصوم ﷺ.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الأنعام:١٥١)، فالعاقل هو الذي يدرك هذه المعاني وآثارها في الحياة.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾(الأنعام:١٥٢)، وهذا تنظيم للعلاقة مع اليتيم الذي فقد عائله، ليكون المجتمع متماسكًا، كشجرة واحدة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥)، ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة:٧٤).

﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(الأنعام:١٥٢)، وهذه قاعدة التعامل في الأسواق بالبيع والشراء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾(الرحمن:٩).

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(الأنعام:١٥٢)، فهذا نظام القول والشهادة في كل الأمور لجميع الناس.

﴿وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا﴾(الأنعام:١٥٢)، فهذه العهود عقود بين الناس يراها العليم الخبير ويشهد عليها، ولذا وجب الوفاء، وإلا حوسب العبد على نقض العهد في دنياه وأخراه من العليم بذات الصدور.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام:١٥٢)، وهذه الذكرى الدائمة تبعث فينا الحياة الطيبة، وفي الآخرة الثواب بالجنات والنعيم المقيم. ■

(*) جامعة الأزهر الشريف، كلية اللغة العربية / مصر.

الهوامش

(١) النور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، للأستاذ فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، ص:٢١، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

سالِك الطريق

وِهادٌ وقِفارٌ، وجبال ووديان،
وحدَكَ لا تمضِ،
وبمفردك في هذا الوعر لا تسر...
ستغشاك ضبابات المساء،
وعتمات الليالي...
عُدْ، وصديقًا وفيًّا الْتمسْ؛
بالطريق عارفًا، وبشعابه خبيرًا...
وإلاَّ في شِباك الصيّاد وقَعتَ،
وتحت جبروت سطوته سقَطتَ...

* * *

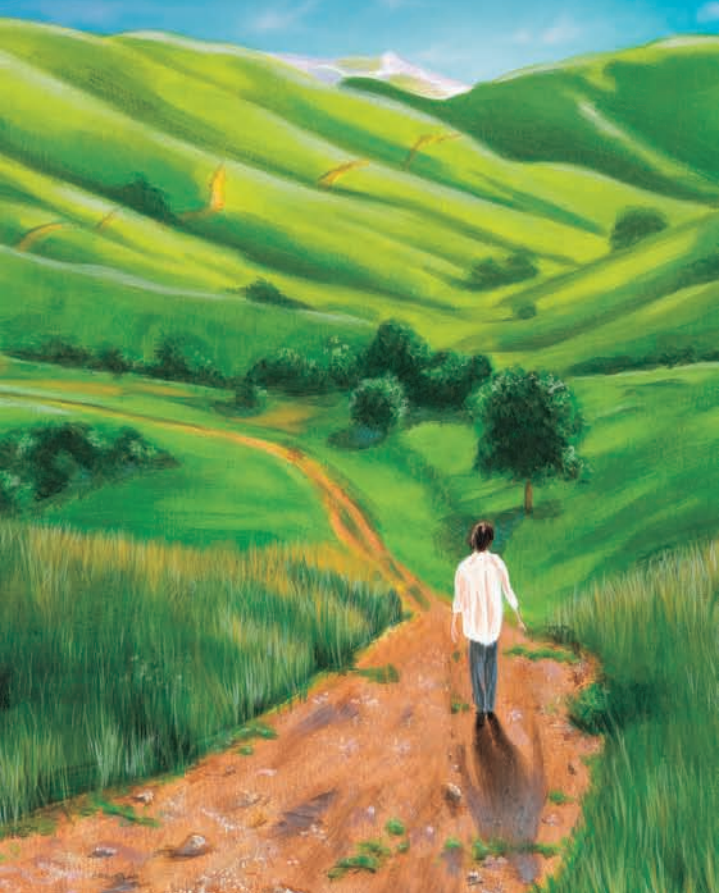

عبد الحق معزوز*

اجتماعية الإسلام

لقد بلغ التشريع الإسلامي الذروة في الكمال والإتقان، والغايةَ في الإبداع والإحكام، ويكفي في وصف ذلك ما ذكره ربنا في كتابه في أخريات ما نزل به القرآن الكريم عندما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣). فلم يترك شرعنا صغيرة ولا كبيرة إلا وبيّن حكمها وطريقة التعامل معها.

ومما حرص عليه دين الإسلام، تقوية الأواصر، وتعميق الروابط بين بني الإنسان في أي مكان كانوا وفي أي زمان عاشوا... فلا ينبغي لمجتمع أن يعيش مفككًا، ولا يليق بفرد أن يعيش منعزلاً، إذ الأول حريص على رعاية الفرد، والفرد حريص على الارتباط بالمجتمع. وهذا ما يضمن حياة أفضل لجميع الخلق، ويؤسس مجتمعًا قويًا قادرًا على مواجهة التحديات والأزمات المختلفة، مجتمعًا حضاريًا راقيًا يرحم القوي فيه الضعيف، ويرفق الكبير فيه بالصغير، ويعطف الغني فيه على الفقير، ويعطي القادر فيه ذا الحاجة... مجتمعًا أخلاقيًا متقاربًا ومتحابًا ومتعاونًا على فعل الخير وخير الفعل.

إن الدين الإسلامي دين عملي، يربط الفكرة بالعمل والنظرية بالتطبيق، وليس مجرد خيال يداعب أحلام المصلحين. "إن ميزة الإسلام أنه تجاوز بدعوته إلى تثبيت الروح الجماعية والاجتماعية، درجةَ إنتاج الأدبيات التي تُركّز عليها أغلبُ المذاهب الاجتماعية، إلى أن فرّغ رؤيته المجتمعية في قالب أحكام فقهية ملزِمة ما كان لها أن تَبرُز لولا أن الخطاب الشرعي تَوجَّه إلى المسلمين، باعتبار جميعي وباعتبار آخر مجموعي... إن هذه الأحكام في مجملها أوحت إلى الفرد المسلم، بأن مراد الإسلام منه أن يلتحم بالجماعة ولا ينأى بنفسه عنها، ولا يرى نفسه استثناء منها، ويبذل الخير كله لها"[1].

إن الإنسان في التصور الإسلامي، لا يعيش مستقلاً بنفسه منعزلاً عن غيره، إنما يتبادل مع أفراد مجتمعه الآخرين التعايش والتعاون والتساند والتكافل في أمور الحياة وفي شؤون المجتمع. فالفرد في الإسلام هو فرد، وهو في نفس الوقت عضو في جماعة؛ فهو يتحرك بين الفردية والجماعية دون أن يفقد ذاتيته، وإنما يصبح قادرًا على التسامي فينتقل

من الأنانية إلى الغيرية، ومن تحقيق مطامعه الخاصة إلى رعاية الجماعة والتضحية من أجلها، وهذا مقتضى الأخوة التي نصت عليها الآية الكريمة، قال ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(الحجرات:١٠). إن إعلان الإخاء بين أفراد مجتمع ما، يوجب التكافل بينهم، لا في الطعام والشراب وحاجيات الجسم فحسب، بل في كل حاجة من حاجيات الحياة... فيحرص على حياته وحريته وثقافته وكرامته ومكانته. إن على كل فرد مسؤولية جماعية قد تضيق الدائرة أو تتسع حسب القدرة والاستطاعة، ولكن تبقى المسؤولية حاضرة، فمن منَّ الله عليه بالعطاء ومنحه نعمة من النعم، فهو مطالب بالبذل والسخاء، هذه اجتماعية الإسلام وهذه ثقافة المسلم الحق. إن على الكل أن يدرك أننا في السفينة نفسها، وعلينا العمل جاهدين للأخذ بيد أفراد هذه السفينة حتى نضمن الأمن والأمان الذي هو مطلب أساس للرخاء والاستقرار.

لقد وجه الإسلام الاهتمام إلى فئات عريضة من المجتمع ممن تظهر عليهم الحاجة والفاقة، أو العجز والمرض، أو العاهة والإعاقة. وإذا أردنا حصر النصوص من القرآن والسنة والآثار التي تؤكد هذا المعنى العظيم لوجدناها من الكثرة بمكان، منها ما هو صريح ومنها ما هو إشارة وتلميح. "إن الإسلام قد أولى الطبقات الضعيفة في المجتمع اهتمامًا خاصًّا، فشرع لهم من الأحكام والوسائل ما يكفل العمل الملائم لكل عاطل، والأجر العادل لكل عامل، والطعام الكافي لكل جائع، والعلاج المناسب لكل مريض، والكساء المناسب لكل عريان، والكفاية التامة لكل محتاج... بغير إسراف ولا تقتير"[٢]. فالمجتمع الإسلامي يمثل طرازًا فريدًا من التعاطف الإنساني، إذ حبب الإسلام إلى هذه الأمة صنع المعروف، وقضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم، وستر عيوبهم، وعيادة مريضهم، والذب عن أعراضهم، ونصر مظلومهم، ورحمة ضعيفهم، وإقالة عثراتهم، والسعي للإصلاح بينهم... وقد نهج لتحقيق ذلك -فعليًّا- منهجًا يختلف عن بقية المناهج الأرضية في كونه يربط هذا العمل الاجتماعي دائمًا بالله ﷻ، ويجعل المصلحة الكبرى والجائزة العظمى في يوم القيامة، موظفًا في ذلك الوازع الديني، ومرسخًا له ومستثمرًا إياه، مع عدم إغفال المنافع الدنيوية الهائلة التي تعود على الناس في حياتهم عند التعامل بهذا السلوك الاجتماعي الراقي.

لقد بلغ الإسلام شأوًا بعيدًا في تكوين أفراد فاعلين وناشطين اجتماعيين، يؤدون حقوق المحتاجين من جهة، ويعملون على نشر ثقافة المساندة والمؤازرة والاهتمام بهم من جهة أخرى. وعاب الله ﷻ على من حاد عن هذه السبيل فقال: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(الماعون:٣)، وقال: ﴿كَلَّا بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(الفجر:١٧-١٨)، فأنكر سبحانه عليهم عدم نشر ثقافة العطاء والبذل، بل ورتب على عدم القيام بحقوق المستضعفين الجزاء الأليم، فقال ﷻ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾(المدثر:٤٢-٤٤). وقد بيّن الرسول ﷺ مسؤولية المجتمع عن كل فرد جائع محتاج في عبارة قوية، في إنذارها للفرد والمجتمع فقال: "ليس المؤمن بالذي يَشْبَع وجارُه جائع إلى جنبه" (رواه البخاري)، كما وضع لهم الأساس الفكري لقيمة العمل الاجتماعي والبذل والعطاء من كل ما يملكه الإنسان عندما نادى في الناس ﷺ: "من كان له فضلُ ظَهرٍ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضلٌ من زاد فليعد به على من لا زاد له"، قال أبو سعيد الخدري ﷺ راوي الحديث: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل. (رواه مسلم)

إنها ثقافة الاجتماعية وحضارة الإنسانية التي يغرسها الحبيب المصطفى ﷺ في أتباعه، ولا شك أنها ثقافة وحضارة طبعت بطابع الدين وصبغت بصبغة الإسلام وتلونت بلون الشريعة،وعلى قدر عمق الإسلام وشموله، يكون تأثير مبادئه في المسلمين الذين يعيشون في إطاره... وكل ما نحتاج إليه، هو العودة إلى تفعيل القيم الإسلامية بمفهومها الشامل، لتحرك المجتمع وتجعله أكثر وعيًا وإدراكًا للمقاصد الحقيقية للشريعة، حيث تتوافق النظرية والتطبيق، وتتلاءم العبادة والمعاملة، وتتناسب العلاقة العمودية والأفقية عند أتباع الملة وأنصار الأمة المحمدية. ■

(*) أستاذ باحث في العلوم الإسلامية / المغرب.

الهوامش

(١) العمل الاجتماعي في الإسلام، لمصطفى بنحمزة، سلسلة دفاتر المركز، ط:١، ص:١٥-١٧، مطبوعات الهلال، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب.

(٢) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة. ط:١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ص:١٣٧. بتصرف.

أ.د. خالد الصمدي*

محاولة الأمم للتقدم إلى الأمام، ينبغي أن تمرَّ من خلال تقويم الحاضر بما له وما عليه، مع الاستفادة من تجارب الماضي وإيلائها أهمية حقيقية، وإلا نكون قد ظلمنا الأجيال الصاعدة وتسببنا في ضياعهم.

(الموازين)

* * *

التربية الإسلامية

والبعد الإستراتيجي لقضايا التنمية-٢

عبر النماذج التي سردناها في المقال الأول، يظهر بجلاء أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بفلسفة التربية السائدة. وحتى ننقل القارئ من هذا المستوى التنظيري إلى المستوى التطبيقي، نقوم بجولة عبر ميادين التنمية المعاصرة لرصد واقعها أولاً، ثم معرفة انعكاسات التربية الإسلامية على مستوياتها العملية، لنعرف أن التربية الإسلامية -في قطاع التكوين الذي يشكل الرافد الأساسي لمؤسسات التنمية- مادة تذوب في كل التخصصات لتطبعها ببصمات الاستمرار الناجح والتخطيط المسؤول، وليست مادة منعزلة أو متعلقة بتخصص دون آخر.

التربية الإسلامية وتسيير المؤسسات

يحتاج تسيير المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل القوانين الضابطة، إلى تكوين متين ومستمر يستوعب التغيرات، ويحتاج أيضًا إلى من يتصف بأخلاق المهنة والإخلاص لها، ثم هو يحتاج ثالثًا إلى تخطيط مستقبلي ورؤية بعيدة.

وتأتي القوانين المنظمة، خاصة الزاجرة منها لسد الثغرات وتفويت فرص الاستهتار على المتهاونين والمصلحين، ويحتاج القانون المتعارف عليه إلى جيش من الأطر يسهر على حمايته، ثم إلى مجموعة أخرى تسهر على حماية ومراقبة حماة القانون. لأن المتعارف عليه في زماننا من خلال الواقع المعيش، أن أهل القانون أقدر الناس على اختراقه، باعتبار الاطلاع الكبير على الحلقات المفرغة ونقط الضعف وصيغ التأويل. وما أُتيت كثير من المؤسسات، إلا من قبل سوء التدبير وخرق القوانين المنظمة نظرًا لغياب الضمير المهني من جهة، ثم ضعف الرقابة البشرية من جهة ثانية.

إن هدف التربية الإسلامية يتجلى في طرح البديل الإسلامي في الواقع سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، ثم ترسيخ الرقابة الذاتية التي تجعل الشخص المسؤول يرقى بالمسؤولية من التشريف إلى التكليف، لأنه يعي جيدًا قول الرسول ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

وأمام هذا الوضع لا شك أن تسيير المؤسسات، في حاجة إلى رجال يتوفرون -إلى جانب ما ذكرنا- من تكوين مستمر ومتين على رقابة داخلية مكتسبة من منظومة تربوية إسلامية تربطهم بأهداف أسمى من "الضمير الحي" و"الواجب الإنساني"، إلى تحقيق مبدإ خلافة الله في أرضه، والإحساس بالمسؤولية أمام أصحاب الحقوق، وأمام الله الذي يعتبر رقيبًا وحسيبًا وشاهدًا، لقول الرسول ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (رواه البخاري). ولن يتم هذا إلا إذا كان التكوين المهني والمعرفي، لا تنفصل فيه الجوانب التقنية عن التوجيهات الروحية العقائدية. وقد نستغني بهذا عن أطر الرقابة التي تحتاج إلى رقابة، وقد نستغني عن بروتوكولات القسم التي تتلو أي تعيين في أي منصب من المناصب الحساسة في الدولة. ولذلك لا نستغرب من كون الرسول ﷺ معضدًا بالوحي، قضى ثلاث عشرة سنة في صقل الجانب العقائدي لدى الرجال الذين سيساهمون في بناء أول دولة إسلامية بالمدينة.

ومن هنا يظهر أن هدف التربية الإسلامية يتجلى في أمرين: طرح البديل الإسلامي في الواقع سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، ثم ترسيخ الرقابة الذاتية التي تجعل الشخص المسؤول يرقى بالمسؤولية من التشريف إلى التكليف، لأنه يعي جيدًا قول الرسول ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". ومن هنا ندرك سر قول عمر بن الخطاب ﷺ: "لو عثرتْ بغلةٌ بالعراق لسئل عمر لماذا لم يعبّد لها الطريق"، وقال حين حضرته الوفاة: "ما ندمت على شيء ندمي على تولي الخلافة". ونـدرك أيضًا سبب عزوف أبي حنيفة عن تولي منصب القضاء، غير أنه كان من سننهم أيضًا إذا رأوا أنهم أهل لتولي منصب قد يفسده مَن ليس أهلاً له، قالوا مثل ما قال يوسف عليه السلام للعزيز: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(يوسف:٥٥). والحفظ يعني الشعور برقابة الله تعالى، والعلم يعني الكفاءة، وهما شرطان أساسيان لتسيير المؤسسات وهذا ما توفره التربية الإسلامية.

التربية الإسلامية والتكنولوجيا

يشعر الإنسان في العالم المعاصر أنه أسير التكنولوجيا، وأن التقنية الحديثة سلبته حريته فأصيب بهذيان وارتجاف خوفًا من أن تكون عاملاً مدمرًا للحياة، أو -على الأقل- عامل استعباد للضعفاء، وتهديدًا لمصادر رزقهم، وتحكمًا في خياراتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو ما حصل بالفعل في عالم النظام الجديد، وقبله أيام الحرب الباردة. وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي رحمه الله: "التكنولوجيا بحد ذاتها، هي مصدر للروائع بالنسبة للإنسانية، لكن هذه الأخيرة ليست -أبدًا- سوى وسائل مادية فاترة ذات بعد متساو من الخير والشر على الصعيد الإنساني. إن للتكنولوجيا دورًا وهو الدراسة العقلانية للتقنيات، ويجب أيضًا إقامة انشطار واضح بين الاستعمال الحسن أو الاستعمال السيء للتقنيات، غير أن ما يميز التكنولوجيا ظاهريًّا في مرحلتنا الراهنة، هو بداية قسوة تطبيقاتها: أفران حرق الجثث (هيروشيما)، التمشيط المنتظم للثائرين (الثوار ضد فرنسا)، رش البلدان بالنابلم في الصبائح الهادئة... الشواهد لا تنقص أبدًا، إن المنطق ينكسر في هذه اللعبة، ويتموضع "الأنا" في

البداية أو في النهاية، ويصبح الكلام عبر منطق مكسور. وهاك بعض الوقائع التي تسبب الخوف والارتجاف، إنها مراجع مرقمة، مدورة وحادة وجارحة بشكل فارق:

٩٠٠ مليار دولار تقريبًا للتسلح، مقابل ٣٥ مليار لمساعدة العالم الثالث، وجزء عيني من هذه المساعدات معطى على شكل سلاح أو يقدم لشراء أسلحة... كيف يمكن لمسلم أن يكون رد فعله على هذا الرجل العالمي؟

وبعد عرض مستفيض لمختلف المواقف المتخذة من التكنولوجيا، خلص الدكتور الفاضل إلى فكرة تصب في نفس اهتمامات العالم المعاصر، وهو ما يصطلح عليه بأخلاقيات التكنولوجيا، وما نسميه نحن، توجيه التربية الإسلامية للتكنولوجيا بما يخدم قيم الإنسانية، ويحقق خلافة الله في الأرض وعمارتها، مخالفين بذلك منطق السيطرة الذي يؤدي في غالب الأحيان إلى الاستعمال السيء للتكنولوجيا. يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي: "وبالفعل، فالإسلام والتكنولوجيا... سوف يجدان وجه فائدة لكل منهما، فالآلية المنتقدة من أجل تفلتها الجنوني، سوف تأخذ وجهًا إنسانيًا، والإسلام سوف يجد وثبته الجَسور التي انتزعها منه التفاوت التاريخي، وسوف يعود الإيمان قوة احتجاج متيقظة... وهكذا فإن زاوج العقل والإخلاص بين العلم والتكنولوجيا من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى، يعيد للمجتمع بُعده الروحي، وسوف نسترجع عندها الصفاء والسكينة الخامدتين منذ أمد.

التربية الإسلامية والإعلام

يستطيع الإعلام أن يكوّن صورة سيئة عن إنسان ما أو شعب ما، كما أن له قدرة على إنشاء صورة إيجابية وإن لم تكن حقيقية عن إنسان آخر أو شعب آخر. وعن طريق سلطة الإعلام ودورها في تكييف الإطار الفكري للإنسان، نخلص إلى أن الوسائل الإعلامية تلاحق الفرد في العصر الحديث أينما كان. وبغض النظر عن مكونات العقلية المرجعية، فإننا نجده مستعدًّا للتجاوب مع الخبر والصورة بشكل كبير، ويبقى الصدق والكذب وقواعد الإعلام مثل "الخبر مقدس، والتعليق حر" تخضع للنسبية المرتبطة بأخطبوط إعلامي موجه لخدمة أهداف معينة، ليست بالضرورة في صالح المستمع، بل توجيهه والتأثير عليه. وقد أضحى الارتباط متينًا بين المؤسسات السياسية والإعلامية، ولم تعد الاستقلالية واردة على الإطلاق. فلن يمكن بأي حال، أن تخرج توجهات محطات الإرسال التلفزيوني في الولايات المتحدة -مثلاً- عما تخططه المؤسسة الحاكمة في إطار النظام العالمي الجديد. وكم كان الإعلام الغربي مقدمة ممهدة لضربات عسكرية موجعة في عدة مناطق من العالم، عن طريق استعداء العقلية الغربية باستعمال مصطلحات "الإرهاب"، "التطرف"، "الشرعية الدولية"، "التدخل لحماية حقوق الإنسان"، "إعادة الأمل"... فيشعر الشارع الأوروبي إما بالتعاطف مع العمليات العسكرية، أو بالخوف على المصالح. ولقد أصبح المسلمون اليوم، بعد فترات الانحطاط، يعتمدون على وسائل الإعلام الأجنبية في مادتهم الإخبارية، التي ترتبط في كثير من الأحيان بمركزية الغرب، وفي كثير من الأحيان الأخرى بالمؤسسات الصهيونية، التي تعمل عبر شركات دعاية إعلامية ترصد لها الأموال الطائلة لصناعة أبطال مزيفين، وتهميش كل من يدور في فلك هذه المؤسسات أو يعمل ضدها.

إننا نجد في الإسلام ضمانات الخبر الصادق واستقلال المؤسسة الإعلامية، نظرًا لتحملها المسؤولية في تحري الدقة، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(الحجرات:٦)، وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨). وقوله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت" (متفق عليه).

إن ميدان الإعلام يحتاج إلى تربية وتكوين يضمنان توفر أخلاق المهنة. ويتحرر الإعلام ليصبح أداة ترشيد وتثقيف عوض أداة ضغط وتزييف، وذلك عن طريق تطعيم برامج التدريب بالتصوير الإسلامي، سواء في المناهج أو المواد الدراسية، لأن الواقع الحالي يتحدث عن غياب أي حس إعلامي إسلامي عند معدّي البرامج عمومًا، أو عن خبرة ضعيفة عند معدّي البرامج الدينية خصوصًا. فلا هذا ولا ذاك نريد، إنما نريد إعلامًا متطورًا منضبطًا بالتوجهات التربوية الإسلامية وأساسيات الإعلام الحر النزيه.

التربية الإسلامية والبيئة

حينما نتحدث عن البيئة، فإننا نقصد كل ما يحيط بالإنسان مما سخر الله له في الكون من مخلوقات، قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر:١٩). وقد تحدثت كثير من الدراسات عن البيئة وعوامل تلويثها؛ فتحدثت عن تلوث الماء، وعن تلوث الهواء، والتربة، والغذاء، والتلوث الضوضائي، وتلوث الطبقات الجوية، واستنزاف الثروات الطبيعية... وأشارت بأصابع الاتهام إلى الإنسان عبر أنشطته الصناعية التي خلفت نفايات خطيرة، وأنشطته العسكرية التي خلفت دمارًا وخرابًا للبيئة، يبقى مفعوله عبر الحقب والأزمان. ومخزون العالم من أسلحة الدمار الشامل، يكفي لتدمير الكرة الأرضية.

يحتاج تسيير المؤسسات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية قبل القوانين الضابطة، إلى تكوين متين ومستمر يستوعب التغيرات، ويحتاج أيضًا إلى من يتصف بأخلاق المهنة والإخلاص له، ثم هو يحتاج ثالثًا إلى تخطيط مستقبلي ورؤية بعيدة.

إن من أساسيات التنمية، الحفاظ على البيئة ومقاومة التلوث. ولن يتم هذا بواسطة قوانين محلية أو دولية يصادَق عليها في مؤتمرات من حجم قمة ريوديجانيرو (قمة الأرض)، وإنما يتم ذلك، بواسطة التربية، لأن الفرد هو الذي يفسد البيئة ويلوثها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١).

إن غياب هذا الحس التربوي الإنساني، هو الذي يجعل الغرب يصدر نفاياته إلى بلدان العالم الثالث بما في ذلك النفايات النووية المشعة، مقابل عقد صفقة مع نظام حاكم في بلد جائع وفقير ومريض. إن غياب هذا الحس، هو الذي يجعل الصناعات الغربية تصب الأطنان من النفايات في عرض البحار. إن الفرق كبير بين الفكر والممارسة، وكبير بين "التخلص من النفايات" و"المحافظة على البيئة"، إن الإسلام حينما تحدث عن الطهارة الحسية المعنوية، فإنما ربط ذلك بالتصور العقائدي والعبادي؛ ربط الطهارة بالشعائر التعبدية حيث لا تجوز بدونها، وتخلو تعليمات الإسلام في كل الميادين من إجراءات لحماية البيئة.

فحينما تحدث عن الماء -وهو المكون الرئيسي للبيئة- ربطه بالحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠). لذلك نهى الرسول ﷺ عن تلويثه في الحديث الذي رواه أبو هريرة، حيث قال ﷺ: "لا يَبُولَنّ أحدُكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه"، وبالقياس يكون النهي بهذا الحديث عن كل ما يلوّث الماء.

وحينما يتحدث عن الحروب ومخلفاتها، ينهى عن حرق المزروعات وتدمير مقومات الحضارة، لأن الحرب في الإسلام استثناء من قاعدة السلام، يقول أبو بكر الصديق ﷺ في وصيته لأسامة بن زيد قائد الجيش الإسلامي إلى الشام: "ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا بقرة ولا بعيرًا إلا للأكل". وعن التصرفات العامة للإنسان في تعامله مع بيئته، عبّر الرسول ﷺ أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة. فعن أبي برزة ﷺ قال: قلت يا نبي الله، علّمني شيئًا أنتفع به، قال: "اِعزِل الأذى عن طريق المسلمين" (رواه مسلم).

التربية الإسلامية وأهداف البحث العلمي

إن الأخذ بالمنهج الإسلامي في مجالات البحث العلمي، يجب أن يُقبَل على أنه حقيقة منطقية وضرورة حضارية. ويكفي شاهدًا على ذلك، أن علوم الكون والحياة إسلامية بطبيعتها -لأن موضوع البحث فيها- هي كل خلق الله في كتابه المنظور.

من هنا كانت إسلامية المنهج العلمي أو أسلمته، صورة حضارية ملحة لضمان مواصلة التقدم العلمي التقني مع الحفاظ على إنسانية الإنسان... ذلك لأن الإيمان الخالص، والسمو الروحي، يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي الإسلامي، وإليهما تعزى كل القوى الدافعة لملكات البحث العلمي عن طريق الإبداع والابتكار.

لذلك بنيت فلسفة البحث العلمي من المنظور الإسلامي، على نظرية التوحيد التي شكلت دافعًا من حيث المنطلق، وهدفًا من حيث النتائج، فيه دافع من حيث أن الرسول ﷺ يقول: "إذا مات ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له" (رواه مسلم). فهذا دافع يتضمن مصلحة الإنسان وتطوير البحث العلمي، والسيطرة على الطبيعة، ليتجاوزها إلى ما هو أسمى؛ وهو

الأجر والثواب المتواصل بتواصل نفع النتائج المتوصل إليها.

وهي هدف من حيث أن "من الصفات الجديدة للمعرفة العلمية المعاصرة، أن الحواجز الظاهرية بين فروع العلم المختلفة أخذت تذوب تدريجيًّا، لكي تحل العلوم المتداخلة والمتكاملة محل العلوم المتعددة والمنفصلة. ولقد توقع "هيزنبرج" هذه النتيجة للعلوم المعاصرة، عندما ذكر في محاضرة ألقاها بجامعة ليبزك عام ١٩٤١م، أن فروع العلم المختلفة قد بدأت في الانصهار في وحدة كبيرة، وحول فكرة العلم الموحد".

وهذا هو هدف البحث العلمي من المنظور الإسلامي؛ إذ كل العلوم ووسائل البحث فيها، تهدف إلى إثبات وحدانية الله ﷻ وعظمته، لذلك نجد كثيرًا من الآيات تحث على النظر في المخلوقات، لإدراك عظمة الخالق وهو الهدف الأسمى من البحث العلمي.

وهكذا تدفع التوجيهات الإسلامية الباحث العلمي، إلى تصحيح النية في البحث وتوجيهه إلى ما هو أسمى من المصلحة الظرفية. وفي هذا التصحيح، دفع قوي، وتجاوز للصعاب، وترشيد في طبيعة توظيف النتائج لخدمة الإنسان وتحقيق الخلافة في الأرض.

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع مختلف جوانب التنمية وبيان تأثرها بالتوجيه التربوي الإسلامي نستنتج ما يلي:

١- إن ربط التربية الإسلامية بالتنمية، لا يعني إيجاد مناصب الشغل لتوظيف طاقة الخريجين، بقدر ما يرتبط ذلك بالهيكلة الحضارية العامة. فكل فرد مساهم في هذه الهيكلة، عليه أن يأخذ من الكفايات ما يضمن معه التوجيه السليم نحو خدمة الحضارة البشرية.

٢- إن خريجي الدراسات الإسلامية من المتخصصين، أبعد الناس من أن تطالهم البطالة، باعتبار الحاجة الماسة في مؤسسات التربية والتكوين إلى هذا التخصص، لتحقيق إستراتيجية تنموية منضبطة مع السياسة العامة المرسومة للتعليم والتكوين. وفي هذا الإطار تندرج دعوة أستاذنا الجليل محمد بلبشير الحسني، إلى تدريس مادة اللغة العربية والثقافة الإسلامية في كل مؤسسات التربية والتعليم والتكوين بمختلف شعبها.

٣- إن وضعية التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية، تفتقد إلى عناصر التوجيه والتأثير بسبب انفصال التربية عن التعليم، حيث أصبح المكلف بتدريس المادة مربيًا، ومدرسو باقي المواد معلمين. والمطلوب في اعتقادي، ليس الرفع من عدد ساعات المادة في شكلها الحالي، وإنما تطعيم مقررات باقي المواد بما يخدم أهداف التربية الإسلامية، في إطار نظرية الوحدة والفروع، مع إقرار نظام الوحدات بخصوص العلوم التشريعية (فقه، حديث، تفسير، عقائد) مركزين من حيث المحتوى على ما يستجيب بطبيعة المرحلة التي يمر بها المتربي المتعلم.

نحن سنرى أن في التخطيط الحالي لمادة التربية الإسلامية من الثغرات، ما لا يكفي في سده إصدار الكتب المدرسية وتعيين الأساتذة المتخصصين وإن كان ذلك لا يخلو من فائدة، لأن الإشكال يكمن في المحتوى المقرر وفي قلة الحصص المخصصة للمادة.

٤- إن التربية الإسلامية، فلسفة عامة توجه الفعل الحضاري الإنساني إلى التوفيق بين متطلبات الحياة المادية والغاية العلوية، التي تتمثل في خلافة الله في الأرض، بعدما أدخلت الفلسفات المادية الإنسان في تجارب مرة، وسراديب مظلمة فقد معها التوازن. تلك جملة أفكار أضعها بين يد كل المخططين المبرمجين للتعليم، لمعرفة أوجه الربط بين التربية الإسلامية الحقة وإستراتيجية التنمية، فيقرروا من المواضيع ما يرتبط حقًّا بهذا المفهوم، مثل قضايا الحرب، والظلم، والاستعمار، والاضطهاد العنصري، ومشاكل الجوع والحرمان، وأخطار التلوث البيئي والنفسي والعقائدي، وسوء استخدام التكنولوجيا، وتناقص الموارد الغذائية والموارد الطبيعية، والتحلل الأخلاقي والانفصال عن الفطرة، وقضايا أخرى لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها، ويصل إلى وسائل أخرى، ثم لينظروا بعد ذلك، كيف تؤثر التربية الإسلامية في قضايا التنمية عمليًّا. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب..

المراجع

(١) نظرة إسلامية على التكنولوجيا، محمد عزيز الحبابي، مجلة الحوار، العدد:١٠، السنة الثالثة.

محمد بهادير دوردنجي*

السلطان عبد الحميد الثاني
والتصوير الفوتوغرافي

إبان القرن الثامن عشر، تم الشروع -ولأول مرة- في كلية هندسة الدفاع البري السلطانية، بتدريس الرسم من أجل التعرف على الصور الثلاثية الأبعاد على النمط الغربي. وفي القرن التاسع عشر، أضيف إلى المنهاج التعليمي في الكلية، مادة التصوير الفوتوغرافي تحت إشراف مدرسين تخرجوا في قسم الرسم، حيث تم التقاط بعض الصور الموجودة في ألبومات الصور العثمانية ولا سيما ألبومات يلديز، من قبل طلاب خريجي كلية هندسة الدفاع البري السلطانية. ومن أشهر هؤلاء الطلاب النقيب حسني (١٨٤٤-١٨٩٦)، البحار علي سامي، أحمد أمين سرولي (١٨٤٥-١٨٩٢)، علي رضى باشا (؟-١٩٠٧)، علي سامي أق أوزَر (١٨٦٦-١٩٣٦).

ومما يستحق الإشادة به، أن السلطان عبد الحميد الثاني حثّ بنفسه على التصوير الفوتوغرافي في الدولة العثمانية، حيث كان التصوير العنصر الرئيس الذي يعكس حالة البلاد خارج القصر، لا سيما عندما كانت الدولة في حالة من الانحطاط والضعف. تلك الصور، سهّلت للسلطان معرفة الأحوال ضمن الأراضي العثمانية التي تمتد من مصر إلى دول البلقان، ومن الحجاز إلى بلاد القفقاس. ومن ثم راح التصوير يزدهر وينمو يومًا بعد يوم حتى أصبحت الصورة وثيقة مرئية تُحفظ في أرشيف الدولة العلية.

يقول السلطان عبد الحميد الثاني: "الصورة التي تعبر عن الوقائع والأحداث وتنقلها إلينا، لهي أدق وأوجز من الكلام الذي يطول فيه الشرح". ولعل هذا يبيّن لنا موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الصورة والتصوير.

تقويم الأشخاص عن طريق الصور

يروى أن السلطان عبد الحميد الثاني كان يحلل الأشخاص من خلال الصور، ويقال إنه بعد مضي ٢٥ سنة من تربعه على العرش، طلب من موظفيه أن يلتقطوا صور السجناء ويسجلوا تحت كل صورة جرائمهم وأسباب دخولهم السجن، وتم هذا فعلاً. فأخذ السلطان يحلل شخصياتهم من خلال هذه الصور، ثم عفا عن بعض هؤلاء وأصدر أمرًا بإطلاق سراحهم. ويقال إنه انتقى الطلاب الذين يستحقون التسجيل في المدارس العسكرية عن طريق الصور كذلك.

وينقل إلينا الطبيب حسين عاطف بك -الطبيب الخاص للسلطان عبد الحميد الثاني- في مذكراته، كيف كان السلطان عبد الحميد يحلل من الصور هوية السجناء ويبدي رأيه حول قابليتهم للجريمة بالتنبيه إلى طول أصابعهم، فيقول عاطف أفندي: "أنهى السلطان حديثه عن الجريمة والمجرم قائلاً: "قرأت ترجمة كتاب إنكليزي حول الجرائم، لأنّ لي فضولاً حول

صورة بانورامية لمكة المكرمة من جبل أبي قبيس.

جدة اليوم

قـراءة الوقائـع الجنائيـة؛ فقد ذكـر في الجزء الأخيـر من هذا الكتـاب، أن رأس إبهـام أغلبيـة القتلـة طويل جـدًّا ويتجاوز العقـدة الوسـطى من السـبابة، وأن يدَي القاتل تشـبه مخالب الحيوانات الوحشية. فدفعني الفضول إلى أن آمر بجمع صور السـجناء كلهم. وفعلاً رأيت أن أصابع هؤلاء طويلة كما قيل فـي الكتاب، ولكن هيئة يد كل واحد منهم كانت مختلفة عن الآخر". وحكى لنا السلطان أنه كان يُقبَض على المجرمين في أوربا -أحيانًا- من خلال النظر إلى صورهم.

إذن، فقد استخدم السلطان عبد الحميد طريقة قراءة الصور فـي تحليـل الأشـخاص، وعفا عن بعض السـجناء من خلال تقويمه لصورهم في ذكرى الجلوس الخامس والعشرين على العـرش. ولعل هذا يفسـر سـبب وجـود عدد كبيـر من صور السـجناء فـي "ألبومـات يلديـز"، وكان أغلبها لسـجناء أرمن وروم اتهموا بجرائم مختلفة.

ألبومات يلديز

تـم التقـاط الصـور الموجـودة فـي ألبومـات يلديز فـي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨)، وهي عبارة عن ٩١١ ألبومًا، وفيها حوالي ٣٦ ألف صورة.

والصـور التـي التقطهـا مصـورون محترفـون، قدّمـت

الجامع الجديد في حي أمين أونو بإسطنبول.

دار الحكومة مع موظفين عثمانيين، وهي قرية من بيروت.

معلومات جليلة عن مدينة إسطنبول وكافة أرجاء الدولة العثمانية، بالإضافة إلى تقديمها معلومات قيمة عن اليابان، والصين، وآسيا الوسطى، والهند، والشرق الأوسط، والبلقان، وأوربا، والولايات المتحدة ومدنها المهمة. فالمصانع التي افتتحت في تلك الآونة، والمدارس، والمستشفيات، والمخافر، والصور التي صورت أحداثًا مهمة، حظيت بمكانة عالية في الألبومات.

وجدير بالذكر أن السلطان عبد الحميد الثاني قد شارك في عملية التقاط الصور بنفسه. وهذا ما يبين لنا مدى ازدهار التصوير في عهد السلطان عبد الحميد والاهتمام به. وبالتالي فإن اللوحات والصور التي تم جمعها في الألبومات، سلطت الأضواء على أحوال الأراضي العثمانية في ذلك الوقت.

ولقد قام السلطان عبد الحميد الثاني بتوظيف مصورين في أعمال شتى، كتوظيف "علي سامي أق أوزَر" بتصوير الإمبراطور الألماني "ويليم الثاني" إبان زيارته القدسَ عام ١٨٩٨، وتوظيف "حسن رضى الأسكداري" بتصوير الأبنية العسكرية، وتوظيف "كنعان باشا" بتصوير أنقاض الحرب العثمانية-اليونانية لعام ١٨٩٧.

حرب نفسية عن طريق الصور

أرسلت الدولة العثمانية ألبومات متنوعة عديدة لتعرّف نفسها إلى دول قوية كفرنسا وبريطانيا، والولايات المتحدة التي بدأت -آنذاك- تلعب دورًا مهمًّا في التوازن الدولي شيئًا فشيئًا.

فقد تم إرسال واحد وخمسين ألبومًا من الصور، إلى ملكة بريطانيا، وملك فرنسا، ورئيس الولايات المتحدة، اختيرت باهتمام بالغ، للتأكيد على أن الدولة العلية العثمانية لا تزال في حالة جيدة، تحافظ على قوتها ومكانتها المرموقة في سياسة العالم على عكس ما كان يعتقد من أنها أشرفت على الزوال والانهيار. وقد أراد السلطان بذلك، خوض حرب نفسية مع الدول الكبرى في وقت كانت فيه الأمم تتصارع للسيطرة على العالم بأكمله ولاسيما أراضي الدولة العثمانية التي لقّبوها بـ"الرجل المريض".

واللافت للنظر أن الألبومات التي أُرسلت إلى خارج البلاد، تميزت بمقاييسها الضخمة؛ حيث تألفت من ٥٠ صفحة، بينما كانت عادة تتألف من ١٢-٢٠ صفحة داخل الدولة العثمانية. كما تم كتابة الحواشي على بعض هذه الألبومات المرسلة باللغة الفرنسية، وبعضها الآخر بلغات أجنبية أخرى.

ولقد تميزت هذه الألبومات بأغلفتها المزخرفة، من أوسمة، وخطوط لتزيين الحواشي، وطغراء السلاطين، والعلَم العثماني، وشعار الدولة العثمانية.

لم تُرسل هذه الألبومات إلى رؤساء الدول فحسب، بل أُرسلت كذلك إلى المتحف البريطاني في لندن، ومكتبة الكونغرس في واشنطن. أما الألبومات التي تم إهداؤها إلى المتحف البريطاني عام ١٨٩٤، فقد كان سبعة عشر منها يتضمن مناظر طبيعية خلابة وآثارًا تاريخية بديعة تعود إلى مناطق عديدة داخل الأراضي العثمانية، وسبعة عشر أخرى منها تتضمن صور وحدات عسكرية عثمانية برية وبحرية، وخمسة عشر أخرى صُوَرَ فعاليات طلبة المدارس العسكرية والمدنية، واثنان منها تعود إلى صور الخيول التي يتم ترويضها في القصر العثماني. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

المراجع

(١) ألبومات يلديز للسلطان عبد الحميد الثاني، مكة المكرمة والمدينة المنورة، لمحمد بهادير دورنجي، ترجمة: نور الدين صواش، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

أ.د. عماد الدين خليل*

تعبير الرؤيا

محاولة جادة لاستكناه النص

إحدى ميزات التصوّر الإسلامي للكون والحياة والوجود، أنه ينطوي على طبقتين تقوم إحداهما على الأخرى: المغيّب والمنظور، اللامرئي والمرئي، عالم الغيب وعالم الشهادة، الميتافيزيقي والفيزيقي.

ولقد أكدت الكشوف الفيزيائية والكوزمولوجية الأكثر حداثة، العمق الغيبي للظواهر الطبيعية الكبرى، وكيف أن العالم المادي لا يعدو أن يكون مجرّد قشرة سريعة الانكسار. فبعد تفجير القنبلة الذرية، ومن بعدها الهيدروجينية والنيوترونية تأكدت هذه الحقيقة، وأن ما وراء القشرة الهشة، تحتها تمامًا على بعد خطوات منها، مخفية عن العيان، ومنطوية على عالم الغيب، قوى هائلة تفوق التصوّر، وتؤكد الحقيقة القرآنية التي طالما أشار إليها كتاب الله من أن عالم الغيب أشدّ ثقلاً وحضورًا من العالم المشهود.

والظاهرة لا تقتصر على الغيب الفيزيائي وحده -إذا صحّ التعبير- ولكنها تمتد لكي تشمل الخلائق كافة، والقوى والطاقات الهائلة التي ينطوي عليها الكون، مرورًا بالملائكة والجان، ووصولاً إلى كلمة الله التي إذا أرادت شيئًا فإنما تقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

العقل البشري

العقل البشري الذي لا يزال -رغم كشوفه المدهشة- طفلاً يحبو عند حافات الكون، لن يكون بمقدوره إدراك ما تعنيه كلمة "الغيب"، وما تنطوي عليه من قوى خلاّقة هائلة غير محدودة.

هايزنبرغ، وشرودنجر، وأينشتين، وماكس بلانك،

والفيزيائيون، والكوزمولوجيون الذين جاؤوا بعدهم، فتحوا في القشرة المنظورة ثغرات ضيقة جدًّا فرأوا الأعاجيب، وكانت القنبلة الذرية واحدة من ثمار هذه الأعاجيب... ترى، ماذا لو رفع الغطاء كله؟ ما الذي سنراه؟

النفس البشرية وعلم الإنسان

"ألكسيس كاريل" في "الإنسان ذلك المجهول" -ومن أجل تأكيد عجز الإنسان، ونسبية معرفته عن معجزة العقل، وطرائق عمل الدماغ البشري- يؤكد بأن العلم الطبيعي إذا كان قد أوغل في كشوفه، وقطع المسافات الطوال بخصوص الظواهر الطبيعية، فإنه يكاد يحبو ويتعثر في فهمه لخبايا النفس البشرية... يقول: "إننا بتعلمنا سرّ تركيب المادة وخواصها، استطعنا الظفر بالسيادة تقريبًا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا أنفسنا... إن علم الكائنات الحية بصفة عامة -والإنسان بصفة خاصة- لم يصب مثل هذا التقدم... إنه لا يزال في المرحلة الوصفية... فالإنسان كلٌّ لا يتجزأ وفي غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه أو في أجزائه في وقت واحد... فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب. إن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة، ونحن لا نملك أي فن يمكننا من النفوذ إلى أعماق المخ وغوامضه، أو إلى الاتحاد المتناسق بين خلاياه. وعلينا أن ندرك بوضوح، أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعًا".

بل إن الفيزيائيين الكبار الذين أشرنا إليهم، كشفوا عن حقيقة أخرى؛ أنه حتى الكشوف الفيزيائية المتعاملة مع المادة والطاقة والضوء والكتلة، لم تبلغ حافات اليقين، وأن نسبة الاحتمال فيها كبيرة وكبيرة جدًّا، وأنها تنطوي على أعماق غائرة مغيّبة عن الأنظار، وعن أكثر الأجهزة التقنية قدرة على الكشف والإيغال.

ومن الواضح كما يقول "سوليفان"، أن حقيقة كون العلم مقصورًا على معرفة البنى وليس الماهيات، هي حقيقة ذات أهمية إنسانية عظيمة لأنها تعني أن مشكلة طبيعة الحقيقة لم يبتّ فيها بعد، ولم يعد يطلب إلينا الآن أن نعتقد بعدم وجود مقابل موضوعي لاستجابتنا للجمال... إن تطلعاتنا الدينية وحسنا الجمالي، ليسا بالضرورة ظواهر وهمية كما جرى الافتراض في السابق[1].

عالم الشهود

ما الذي نخلص إليه من هذا العرض الموجز سوى أن عالم الشهود لا يعدو أن يكون بقعًا صغيرة ومنحسرة في البنية الكونية، وهو كذلك في النفس البشرية بتقلباتها التي لا حدود لها، وبطرائق عمل الدماغ البشري، حيث لا يبدو في معظم الأحيان سوى الخمس من كتلة الجليد العائمة، بينما تظل الأخماس الأربعة الأخرى مغيبة عن الأنظار باعتبارها عالمًا غيبيًّا.

أربع وخمسون مرة ترد كلمة "الغيب" باشتقاقاتها المختلفة في كتاب الله، مما يدل على الثقل الكبير والحضور المؤكد اللذين أولاهما القرآن الكريم لعالم الغيب، بل إن نقطة الارتكاز الأساسية في الإيمان، والتي وردت في الآية الثالثة من سورة البقرة، هي الإيمان بالغيب: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(البقرة:١-٣).

بعدها تتوالى الآيات لكي تعرض الحقيقة الغيبية وتتعامل معها، من أكثر من زاوية وعلى أكثر من مستوى.

لن يتسع المجال لإيراد الشواهد الكثيرة على تداخل ظاهرتي الغيب والشهود في البنية الكونية والإنسانية، ولذا سيتم الاكتفاء بثلاثة منها قد تغني عن المزيد:

سوليفان: "لقد أصبح العلم شديد الحساسية ومتواضعًا نسبيًّا، ولم نعد نلقن الآن أن الأسلوب العلمي هو الأسلوب الوحيد الناجح لاكتساب المعرفة عن الحقيقة. إن عددًا من رجال العلم البارزين، يعبّرون -بمنتهى الحماس- على حقيقة مؤداها أن العلم لا يقدّم سوى معرفة جزئية عن الحقيقة، وأن علينا لذلك أن لا نعتبر أو يطلب إلينا أن نعتبر كل شيء يستطيع العلم تجاهله، مجرد وهم من الأوهام"[2].

أينشتين: "إني أدين بالتبجيل كله، لتلك القدرة العجيبة التي تكشف عن نفسها في أضأل جزيء من جزيئات الكون"[3].

ألفرد كاستلر: "إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة، أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئًا... فسوف يظل دائمًا شيء مخفي عنا". ثم وصف متاعبه في استمرار البحث بالقوانين المعروفة، إذ اكتشف أنه بعد التوغل إلى أمد بعيد، توقفت

القوانين عن العمل، وأنه دخل مرحلة لم تعد تسري فيها هذه القوانين الطبيعية المعروفة في الأرض، مما جعله يسأل نفسه: "أترى علم الفيزياء الذي نمارسه في الحقيقة ليس علمًا واحدًا؟ أي أنه يوجد علمان كل منهما يعمل مستقلاً عن الآخر: علم للمرئيات وعلم للمخفيات... أو بعبارة أخرى: علم للمحسوسات أو لهذه الدنيا، وعلم فيزياء آخر لغير المحسوسات، أي لغير دنيا البشر، أي للآخرة، وكل منهما له قوانينه الخاصة التي لا تسري إلا على عالمه"[٤].

الإنسان والتركيب والثنائي

والإنسان نفسه، امتداد لهذا التركيب الثنائي المدهش حيث الشعور واللاشعور، والوعي واللاوعي، والحسّي والوجداني، والمادي والروحي... وتجيء الرؤى والأحلام لكي تعكس جانبًا من هذا التركيب، وتشكل حلقة من حلقاته المعقدة المتشابكة. وكان على النقاد وهم يتعاملون مع النصّ الإبداعي الذي يعكس الهم الإنساني، بطبقاته كافة أن ينتبهوا إلى هذا، ولكن شريطة ألاّ يذهبوا بعيدًا باتجاه أحد المكونين، فيشط بهم النوى، ويضحى -بذلك- بالعديد من الحقائق. وعلى سبيل المثال، فإن الواقعيين، والواقعيين الاشتراكيين بشكل خاص، التصقوا بالحسّي المباشر المنظور أكثر مما يجب، فأغفلوا "العمق" الذي تنطوي عليه الخبرة البشرية. وعلى العكس تمامًا، أوغل السرياليون فيما يسمّونه هم سراديب الظلام والدجنة في لاواعية النفس البشرية، فبعدوا كثيرًا عن تحليل الأبعاد الحقيقية والواقعية للخبرة.

ويجيء الناقد المسلم لكي يعيد الأمور إلى نصابها، والميزان إلى وضعه الحق، فلا يغفل عن أية مفردة من هنا أو هناك، ويلاحق أية خبرة في عالم الغيب أو الشهادة على السواء.

إن الدكتور علي كمال الدين -ومنذ زمن بعيد- عرف كيف يضع هذه الحقائق نصب عينيه، وأن يمسك جيدًا بأحد المفاتيح الضرورية للدخول إلى النص واكتشاف مكنوناته ورموزه وأسراره، من خلال ما اصطلح عليه بتأويل الرؤى والأحلام.

إنه -بهذا- يضيف بُعدًا جديدًا للجهد النقدي في دائرة الأدب الإسلامي المعاصر، ويقدم إضاءة ضرورية قد تكتشف في دلالات النص الإبداعي ما يعين على المزيد من قراءة خباياه ومكنوناته... وهو قد نفّذ منهجه هذا مع العديد من النصوص الشعرية والروائية... وبغض النظر عن مدى مصداقية النتائج التي توصّل إليها، فإن المحاولة تستحق المجازفة حقًّا، لأنها في بدء التحليل ونهايته، تمثل إضافة ذات قيمة بالغة للجهد النقدي الذي يستهدف التحقّق بمقاربة أشد للنص.

وهنا -كما في كل الخبرات الأخرى- علينا أن نتذكر كيف أنّ التصوّر الإسلامي، يتعامل مع الظواهر والأشياء برؤية شمولية تدير كاميرتها على كل "الحالات" في إيجابها وسلبها على السواء، إنه يرفض الرؤية الأحادية، ويمسك بالعصا من أوسطها إذا صحّ التعبير. فها هنا في مجال ما يراه النائم، لا يزكي كل المرئيات ويتقبلها على عواهنها، كما أنه من جهة أخرى لا يرفضها وينفيها. إنه يصنفها -ابتداء- إلى رؤى وأحلام؛ في الأولى قد تتأكد الدلالة وتتكشف الترميزات في واقع الحياة اليومية، أما في الثانية فهي مجرّد أضغاث -كما يسميها كتاب الله- تنطوي على الكثير من الفوضى والتناقض، وتعكس مخزونات اللاواعية البعيدة عن العقلانية وربما المناقضة لها، فلا تكاد تومئ بشيء ينطوي على القدرة على التحقّق في واقع الحياة.

في الحالتين يمكن للناقد -كما يمكن لعالم النفس- أن يسبر غور الرؤيا والحلم، هذا للكشف عن دلالات النصّ الإبداعي، وذاك لإضاءة تعقيدات النفس البشرية وأغاميضها.

يختار علي كمال الدين في بحثه الموسوم "شعرية السرّ المخفي في الثعابيني عنوانًا"، رواية للأديب السوري "عبد الله عيسى السلامة" تحمل عنوان "الثعابيني"، وهي بدءًا من عنوانها هذا، تغري باللجوء إلى تفسير الرؤى والأحلام، لأن للثعبان شأنًا لدى المفسّرين، وطالما انطوى (العنوان) لدى علي كمال الدين على أهميته البالغة، باعتباره البؤرة التي تلّم أشعة العمل الفني، والمفتاح الذي لا يمكن -بدونه- الولوج إلى خفايا العمل، ودلالاته المنظورة والمخفية. ولذا هو يقف طويلاً عند العنوان والتسمية، في بعدهما التاريخي، وفي دلالاتهما المعرفية، ويرى "أن عنوان القصيدة أو الرواية إنما هو مفتاح الدخول إلى عالمهما"، ويحلّل طبيعة الارتباط بين العنوان ومطلع القصيدة الذي أولاه الشعراء الأوّلون أهمية بالغة.

ثم ما يلبث أن يلج إلى رواية "الثعابيني"، لكي يتابع ما الذي ينطوي عليه العنوان في دلالته اللغوية والقرآنية، ويقف طويلاً عند دلالته في تعبير الرؤيا، مستضيئًا بمعطيات جملة من المصادر والمراجع: التفاسير القرآنية، كتب تفسير الرؤى والأحلام، المعاجم اللغوية، كتب الأدب، دواوين الشعر،

والدراسات الأدبية والنقدية والفلسفية المعاصرة، لكي ما يلبث أن يخلص إلى القول بأن "رواية "الثعابيني"، رؤية مختصرة مكناة تنطوي على حكمة السياسة والعبرة، فهي إنذار لكل ثعابيني بأن مصيره أن يطاح به على يد أبناء شعبه، أو على يد ثعابيني آخر يحلّ محله. فالسياسة في نهاية الأمر، لعبة لا تخلو من التقلبات كتقلبات الأفعى، وتنطوي على الكثير من الزحف والتلّون والسموم. وفي الرواية بشارة أيضًا بأن للشعوب أن تتخلص من طغاتها وحكامها المستبدين، فإن في جواهر مرئيات رؤيا الثعبان الحكمة والأنباء المضمرة المكناة التي كشف عنها المعبّرون. وهو يتساءل في نهاية المطاف: "هل نستطيع القول أن عنوان الرواية يمثل منبثقًا للظلام والظلم الذي انبثق من طغيان الحاكم المستبد التابع، الذي قام وصفه على التضاد الرهيب بين دلالتين في خلقه؛ دلالة لين الملمس وزهو اللون بين يدي سيده، فإذا انقلب إلى شعبه، فليس سوى دلالة السمّ والناب والموت؟".

إنها مقاربة مقنعة لدلالات النص الإبداعي، وإضافة أداة نقدية أخرى إلى أدوات الجهد النقدي تستهدف التحقق بإضاءة أشد نفاذًا إلى خفايا النص ومكنوناته، هذا فضلاً عن أن المحاولة تنطوي على منح خصوصية أكثر للناقد المسلم، ليس فقط بتجاوزه الحسّي المنظور إلى ما وراءه من عالم الغيب، وإنما -أيضًا- باستدعاء وتوظيف خبرات الآباء والأجداد في مجال تفسير الرؤى والأحلام، فيما لا نكاد نجده بهذا القدر من الخصب والنفاذ لدى الأمم الأخرى.

إن هذا -مرة أخرى- سيفتح الطريق واسعًا متشعبًا لإعادة قراءة العديد من النصوص الإبداعية التي تعامل معها النقاد من زوايا شتى، ولكنهم أغفلوا هذه النافذة التي عرف علي كمال الدين كيف يلج منها، لكي يقدم لقارئه مقاربة أشد نفاذًا لمكنونات النص. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

(١) حدود العلم، د.م.، بيروت ، الدار العلمية ١٩٧١م، ص:٣٩-٤٠.

(٢) حدود العلم، د.م.، بيروت ، الدار العلمية ١٩٧١م، ص:٣٢-٣٣.

(٣) ينظر: الأحاديث الأربعة، لتوفيق الحكيم، القاهرة، مكتبة الآداب ١٩٨٣م، ص:٢٧.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص:٢٨، نقلاً عن كتاب كاستلر: المادة هذا المجهول.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

جالوت المهزوم

في حومة النزال، ووغَى الحرب،
بقوة الله استعان داوود عليه السلام،
وإلى حولِه تعالى لجأ،
فَتحفّز، وبِمقلاعه رمى...
فإذا العملاق المخيف، تزلزلت أركانه،
ومن سماء جبروته هوى...

* * *

قصة

د. عبد الله صالح العريني*

وكان له ما أراد

اشتهر بأنه خفيف الظل، خفيف الدم، خفيف الروح... يطلق النكتة فتستجيب لها نفوس الحاضرين، ويضحكون منها بشدة مع أنه في العادة لا يضحك... فهذه هي طبيعته وسجيته والفطرة التي فطره الله عليها.

ومع لطفه ودماثة خلقه، إلا أنه لا يُخفي بين الحين والآخر شعوره بالألم، حيث يسارع إلى وضع يده على بطنه بطريقة لا شعورية.

راجع الطبيب، فشخص حالته على أنها اضطراب في الجهاز الهضمي وفي القولون بخاصة. طلب منه الطبيب أن يقتصر على الخضار المسلوقة والفواكه ومقدار قليل من طعامه المعتاد ولكن بدون دسم. وحين رأى القدر الضئيل من الطعام الذي لابد من الاقتصار عليه، ضحك من كل قلبه وقال بصيغة تجاهل العارف:

- هذه الأشياء قبل الأكل أم بعده يا دكتور؟!

وكان هذا يعني أن من رابع المستحيلات أن يقبل هذه الوصفة التي تحرمه الطيبات... فهو رجل أكول بطبعه، يجد في الأكل لذة، ويسوقه إليه نهم شديد. فمن حقه إذن، أن يتضايق من هذه الحمية التي ما أنزل الله بها من سلطان -كما يقول- وكان يردد:

- إن أجدادي أصيبوا بالأمراض لقلة الغذاء وعدم تنوعه، أما الآن وقد أصبح الغذاء الصحي المتنوع في متناول اليد، فيأتي الطبيب ليمنعني عن ذلك؟!

فكان كلما أقبل على التمر والرطب يقول:

- كل شيء أُمنع منه إلا "مسامير الركب".

كان يحب تناول المَنْدي كثيرًا ويردد قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. الحمية هي آخر ما كان يفكر بها، لذا لم يلتزم بأوامر ونصائح الطبيب، بل كان يسخر بينه وبين نفسه من أولئك الذين يحرمون طيباتٍ أحلَّها الله... وكان يغالط في الأمر، ويخلط الجد بالهزل، رافضًا موضوع الحمية من أوله إلى آخره. ولأنه لم يزل في صحة وعافية في الظاهر -على الأقل- فإن مَنْعه من الأطعمة التي يحبها، محاولة فاشلة مكتوب عليها الإخفاق منذ البداية.

كانت نكته وضحكاته لا تحلو في كثير من الأوقات إلا على مائدة الطعام، إذ كان -والحق يُقال- يضفي على الطعام بهجة، ويفتح الشهية بحديثه وطرائفه العذبة.

مضت عدة أشهر وتأكد لديه أن تركه للحمية عمل خاطئ مهما حاول أن يجادل ويماري في ذلك. وراجع طبيبه مرة أخرى بخجل، لأنه خالفه في كل ما طلبه منه، فتقبَّل الطبيب منه ذلك، بعد ما بيّن أنه غاضب منه على تصرفه، وضربه عرض الحائط بكل تعليماته. زاد الطبيب (في العيار) حين خوَّفه من خطورة زيادة الكسترول، وأراه النتيجة المتوقعة

لحموضة المعدة ولزيادة نسبة السكر... إلى آخر قائمة الاحتمالات الصعبة التي وضع نفسه في بداية الطريق الذي ينتهي بها. وأخيرًا قال:

- هذه صحتك أنت وليست صحتي أنا، وجسمك أنت وليس جسم إنسان غريب، وهو مع كل ذلك أمانة استرعاك الله إياها.

رفع إليه عينين كليلتين قائلاً:

- والحل يا طبيب؟

- الحل أن تلتزم بالحمية.

- لكنني لا أستطيع.

- إذن، أقترح أن تبقى هنا في المستشفى أربعة أيام على الأقل، حتى تأخذ فيها علاجًا للظواهر المرضية التي عندك، ثم ننظم لك طريقة طعام الغداء والعشاء والإفطار.

قرر أن يقبل بهذا الاقتراح قبل فوات الأوان، فدخل إلى المستشفى. ولأن حالته لا تستدعي أن يظل على السرير دائمًا، فقد وجدها فرصة أن يتعرف على أكثر من صديق في المستشفى، يتسلّى معهم أو يسلّيهم... وهذا ما كان يحصل -غالبًا- يراهم في المصلى، ويجلس معهم بعد الصلاة يتحدثون... وغالب حديثهم شيء معتاد من تاريخ المرض لكل واحد منهم، لكنه سرعان ما يغير الموضوع إلى شيء آخر، إلى موضوع فيه طرافة وعذوبة. ولذا كان في كل مرة يحصد عددًا من المعجبين المتلهفين لتعليقاته وحكاياته الممتعة.

ومضى اليوم الأول محالفًا الضجر من الحمية، حيث كان يتأفّف من حرمانه من لذائذ الطعام التي عادة ما يضعف أمامها.

وازداد تأفّفه وضجره في اليوم الثاني، وعند مجيء اليوم الثالث، شعر بالحسرة على الطعام ولذائذ الأكل التي ليس له منها حظ ولا نصيب.

كان يردد:

- إلى متى؟ هذا شيء لا يطاق... يا ناس دعوني مع المشويات والحلويات، فإذا متّ فقولوا عني، إنني قتيل المشويات والحلويات!

لم يعد يقدر على إخفاء ألمه وتحسره وهو يرى موزّع الطعام يدور بعربته على الغرف كل يوم ثلاث مرات، ليعطي المرضى أطباقًا من الأطعمة الشهية، ولكن ما إن يأتي دوره حتى يناوله نصف رغيف خبز مع سلطة خضرة قليلة، وتفاحة في بعض الأحيان. هذا كل ما يناله من تلك العربة المملوءة بما لذّ وطاب.

وفي هذا اليوم (اليوم الثالث لبقائه في المستشفى)، قادته خطواته إلى الطابق الأرضي الذي يوجد فيه المرضى الذين أصيبوا بالكسور... نزل إلى قسم العظام وكان مسؤول التغذية قد وزع عليهم وجبة الغداء، ولأن الكسير تُعطى له وجبات عالية القيمة الغذائية فقد هاله ما رأى:

- لحم، أرز، أوصال، كباب، مرق، خبز، فواكه...

أرسل ضحكة كعادته، ثم خاض بالحديث معهم... خاض معهم في أحاديث طريفة... ووسط حديثه الهازل قال:

- ليتني أنكسر حتى آكل مثل أكلكم.

ضحك بعضهم، وتأثر بعضهم الآخر، لأنه تمنى الشر لنفسه... قالوا له:

- يا شيخ، هذه أشياء لا يُمزح فيها، احمد الله على العافية.

فقابلهم مازحًا:

- المهم أن أتناول مثل هذا الطعام الفاخر ولا أبالي بشيء آخر.

ومع أنه قال ذلك مازحًا، إلا أن القدَر كان له بالمرصاد، فتحقق ما تمناه على نفسه بعد أمد ليس بالبعيد.

وأخيرًا جاء يوم مغادرته المستشفى، خرج وقد خفّت عليه كثير من الآلام التي دخل من أجلها. بقي بعد خروجه من المستشفى عدة أيام، فإذا به يُصاب بحادث وتنكسر قدمه اليسرى، فيعود إلى المستشفى نفسه، فتتجبَّر قدمه وترفع على السرير شأن الحالات المشابهة لحالاته.

وفي هذه المرة فقط، سمح له الطبيب أن يتناول من أنواع الغذاء ما كان ممنوعًا.

والطريف أن عددًا من المرضى الذين زارهم عند دخوله الأول للمستشفى، قد دُهشوا لعودته، فيما كان بعضهم يعتب عليه ويقول:

- فهل وجدتَ الطعام يساوي أن تتمنى هذه المصيبة؟!

اعتصم بالصمت... إذ كان سكوته هذا، أبلغ من كل جواب يُردّ. ■

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / المملكة العربية السعودية.

أ.د. علي جمعة*

حدود التجديد والاجتهاد
في الفقه الإسلامي

تُعرَض للمجددين من علماء المسلمين قضيتان **الأولى**: هي التزامنا الأدبي والأخلاقي بعد أو قبل التزامنا الديني أمام الله ﷻ، بأننا ورثة لهذا التراث الطيب الذي قام به أئمتنا وعلماؤنا عبر التاريخ من لدن الصحابة الكرام وإلى يومنا هذا. وهذا التراث والنتاج الفكري عاش عصره، وأدى كل إمام واجب وقته. ولا ينبغي إطلاقًا إذا ما رأينا اختلافًا في المسائل التي نعيشها أن نتهمهم بالقصور أو التخلف، أو مثل هذه الدعاوى التي تخالف الواقع والحقيقة.

فهم أدركوا واقعهم إدراكًا دقيقًا، وساروا في المنهج العلمي الذي يتلخص عندهم كما تقرر في تعريف مدرسة الرازي لأصول الفقه بأنه أولا: إدراك مصادر البحث، ثانيًا: كيفية طرق البحث، ثالثًا: شروط الباحث، وهي الثلاثة التي أشار إليها "روجرز بيكون" بعد ذلك. فإن أصحاب الرازي يعرفون أصول الفقه بأنه: "معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة، وحال المستفيد"، هذا كلام البيضاوي في "المنهاج" والرازي في "المحصول".

فهذا هو المنهج الذي ينبغي علينا أن نسير عليه كما سار أسلافنا، ونقوم بواجب وقتنا كما قاموا بواجب وقتهم. فيجب علينا أن نتعلم منهم كيف كانوا يفكرون، وكيف تعاملوا مع هذه المصادر، وما الضوابط والخطوط والأطر التي لا يمكن أن نتعداها، وما المجالات التي يمكن فيها الخلاف... وفي نفس الوقت لا نجمد على مسائل عصرهم التي ارتبطت بواقعهم، والتي لا تنسجم مع واقعنا بسبب الثورة الهائلة في الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة، وخاصة بعد نشوء الشخصية الاعتبارية واستقرارها بهذا الشكل، وبعد وجود هذه الشركات عابرة القارات، وهذه الطرق السريعة والحديثة في التمويل عبر البنوك... كل تلك الأشياء تسببت في تغير الواقع المعيش تمامًا عما كان، مما يحتم علينا إدراك هذا الواقع الجديد، والتعامل معه بمنهج السلف الصالح؛ حتى نصل إلى المقاصد الشرعية التي ينبغي أن نصل إليها.

إذا انطلقنا من العلم الموروث -وهو أصول الفقه- نجد أن الأساس فيه، هو إدراك النص وتحديد الحجة. فالحجة هي الكتاب والسنة، ولا يمكن التعامل مع الحجة، إلا من خلال علوم التوثيق الخاصة بهذين الأصلين "الكتاب والسنة". وعلم أصول الفقه، يجيب عن أسئلة مهمة خاصة بتوثيق تلك الحجة مثل: ما الفرق بين القراءة المتواترة والشاذة؟ وما الفرق بين الحديث الصحيح والضعيف؟ ما الذي يكون محل قطع؟ ما الذي يكون محل ظن؟

فعلم أصول الفقه -بعد هذا التوضيح- هو الأساس لفهم النص الذي هو مصدر البحث، وهو تحصيل حكم الله في أعمال البشر. ولكن هناك واقع معيشي بعوامل متشابكة له سمات: عالم الأشخاص، والأشياء، والأحداث، والأفكار. هذه العوالم الأربعة متصفة بالتطور والتركيب والتعقد والتغير والتجاوز والنسبية والتقاطع في نحو ثلاثين صفة لهذا العصر.

ينبغي على المجتهد أن يكون عنده القدرة على النظر في النص وطريقة فهمه، وفي الواقع وطريقة فهمه، ثم عليه أمر ثالث وهو كيفية الوصل بينهما؛ كيف يغير هذا الواقع بمؤسسات وبأفكار وبعقود تتواءم مع هذه الأحكام التي قد حصلها من النص. هذا الواقع يدفع العالم أن يبدع ولا يبتدع، فيبدع بمعنى أن ينشئ ما لم يكن قد نشأ من قبل، ولا يبتدع بمعنى ألا يخرج عن مقتضيات ذلك النص الكريم الشريف وهو الوحي؛ إذ إن هذا يحتاج منا أن نعرف أن مصادر معرفتنا هي: الوحي والكون معًا، وأن الوحي هو كتاب الله المسطور، والكون هو كتاب الله المنظور، وكلاهما قد صدر عن الله تعالى، هذا عالم الخلق وهو الكون، وذلك عالم الأمر وهو الوحي. ولذلك لا تناقض بينهما، فهما مصدران من مصادر المعرفة لدى المسلم، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذين المصدرين فقال تعالى: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٥٤).

أما القضية الثانية فهي أننا متمسكون بالحفاظ على هويتنا، ولا نريد محو ثقافتنا وتراثنا، فنستعمل أصول الفقه لفهم النص المقدس، ونستعمل عقولنا بأدوات شتى قد لا تكون معنا الآن لإدراك واقعنا... فإن عناصر النموذج المعرفي الإسلامي، تختلف وتتقاطع مع بعض الأديان والمذاهب الأخلاقية، هذا الذي ينحي قضية الألوهية -ولا أقول ينكرها- وينحي قضية الغائية، وينحي قضية الإطلاق ويقول بالنسبية، وينحى قضية الآخرة ويعيش للدنيا فقط، مما يترتب عليه اختلاف في النظام والتحليل والسلوك اختلافًا تامًّا عن النموذج المعرفي الإسلامي. فالمسلم عندما يكون متشبعًا بهذا النموذج المعرفي، يكون صاحب قضية، يلتزم بالعمل من أجلها أمام الله ثم أمام الناس.

إن أصول الفقه يوفر للمجتهد ما يحتاجه لفهم النص، ولكن ليس هناك ما يوفر فهم الواقع، فغياب هذه الأداة، يفسر لنا كثيرًا من أسباب اختلاف العلماء في المجامع الفقهية، وإنكار بعضهم على بعض، فمدى إدراك الواقع هو أساس اختلاف الفتوى في العصر الحديث.

فكان ينبغي أن تكون أداتنا لفهم الواقع مختلفة، ولكن جامعاتنا تدرس العلوم الاجتماعية والإنسانية على نفس النموذج المعرفي الغربي وليس على النموذج المعرفي الإسلامي؛ لأن إدخال هذا النموذج إلى حيز التدريس في الجامعات، يحتاج إلى ما يمكن أن نسميه بالصناعات الفكرية الثقيلة، التي تحتاج إلى بناء أسس هذه العلوم بناءً مؤسسًا على الواقع، وإدراكه بصورة قوية صناعية كأصول الفقه الذي وضعه علماؤنا، وتوَّجه الشافعي بـ"الرسالة" ثم بعد ذلك توجه بهذا التراث الضخم.

ونحن في عصرنا هذا نفتقد هذه الأداة، فإن أصول الفقه يوفر للمجتهد ما يحتاجه لفهم النص، ولكن ليس هناك ما يوفر فهم الواقع، فغياب هذه الأداة، يفسر لنا كثيرًا من أسباب اختلاف العلماء في المجامع الفقهية، وإنكار بعضهم على بعض، فمدى إدراك الواقع هو أساس اختلاف الفتوى في العصر الحديث.

إن واجب وقتنا هو بناء أداة لإدراك الواقع، وبتأمل الواقع نجد سمات أساسية واضحة تصل إلى ثلاثين سمة منها: التجاوز، والجوار، والنسبية، والتغير، والتركب، والتقاطع، والتطور... إلخ، وهذه السمات منها السلبي، ومنها الإيجابي. فينبغي أن ندرك المساحة السلبية في تلك السمات، حتى نتمكن من تنحيتها بقدر الإمكان، أو تفاديها، وكذلك ندرك المساحة الإيجابية التي يمكن أن نستعملها لتمكين الدين والمنهج الذي أمرنا الله به في حياتنا الدنيا.

كما يجب على المجتهد أثناء الاجتهاد، أن يكون له سقف وخط لا يتعداه، ألا وهو نص الكتاب وصحيح السنة بعد توثيقهما وقبول هذا التوثيق. فلا يمكن أن نقبل الخروج عن القطعي الذي في الكتاب والسنة، ولذلك لابد أن نضيف من ضوابط الاجتهاد الفقهي، الإجماع، فالإجماع ضابط مهم

جدًّا، فلا يجوز لنا الخروج عليه بحال من الأحوال.

كذلك ينبغي الاهتمام باللغة العربية التي نزل بها النص، لأن هناك طوائف من الذين ادعوا التجديد قدحوا في دلالات اللغة، ومن هنا يبدأ الخطأ؛ حيث يتسع المجال لكل من شاء أن يقول في دين الله ما شاء. فلا نقبل دعوى التلاعب باللغة، وهي ما يدعو إليها معسكر ما بعد الحداثة، حيث تمثل هذه الدعوى القدح في دلالات اللغة، وليست اللغة العربية وحدها، إنما أي لغة، يريدون جعل وظيفة اللغة مجرد التلقي. واللغة في الحقيقة، الأداة والتلقي، فالاستعمال من صفة المتكلم، والحمل من صفة السامع، والوضع قبلهما، وبذلك فإنهم يسعون إلى تفسير النص الشريف حسب انطباعات المفسر، دون الالتزام بدلالات اللغة. فنستطيع أن نقول: إن النص الشريف، والإجماع، ودلالات اللغة، وهي مع ما يأتي أسقف ينبغي للمجتهد ألا يتعداها.

ينبغي على المجتهد أن يكون عنده القدرة على النظر في النص وطريقة فهمه، وفي الواقع وطريقة فهمه، ثم عليه أمر ثالث وهو كيفية الوصل بينهما؛ كيف يغير هذا الواقع بمؤسسات وبأفكار وبعقود تتواءم مع هذه الأحكام التي قد حصلها من النص.

ينبغي على المجتهد كذلك مراعاة مقاصد التشريع؛ إذ تمثل النظام العام وهي حفظ النفس، والعقل، والدين، وكرامة الإنسان -حسب التسمية المعاصرة وكانت تسمى قديمًا بالعِرض أو النسل- والملك -وهي تسمية معاصرة كذلك والتسمية القديمة المال- وإنما رَتبتُ هذه المقاصد بهذا الترتيب، لأنه ليس مُتفق على ترتيبها بشكل معين، فالشاطبي بدأ بالدين، والزركشي يورد الخلاف في هذا الترتيب، وهذا الترتيب أراه مناسبًا للتفكير وللعصر كذلك. فالإنسان يحافظ على نفسه ثم على عقله ثم يكلَّف فيحافظ على دينه ثم يحافظ على كرامته وملكه. وعلى هذا الترتيب نكون قد جعلناه نظامًا يصلح لغير المسلمين أيضًا، لأنه متفق عليه بين البشر، فليس هناك نظام قانوني يبيح القتل العدوان، أو يبيح السرقة -إلى يومنا هذا- في أي مكان، مما يجعل هذا النظام العام يتسع للتعددية الحضارية التي فعلها المسلمون عندما أبقوا غير المسلمين بكافة طوائفهم.

والمبادئ الدينية التي تبين أنه: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام:١٦٤)، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(النجم:٣٩)، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ﴾(الشورى:٤٠)، وهو ما يسمى بفورية القوانين... إلخ، من المبادئ الحاكمة للعقل المسلم، والقواعد الفقهية مثل: الأمور بمقاصدها، والضرر يزال، واليقين لا يرفع بالشك، والعادة محكمة، وكذا المشقة تجلب التيسير.

فبعض هذه القواعد خلاصة الفقه، وهذه القواعد يتفرع منها قواعد أخرى، لابد لنا من إدراك المنهج، ولابد لنا من عملية التجريب التي تسقط المشخصات، وتبقي المعنى لابد لنا من النظر إلى المآل، لابد لنا من النظر إلى المصالح، لابد لنا من إدراك مراتب هذه المقاصد، وأن منها ضرورية وحاجية وتحسينية ودرجات العلاقات البينية بينها، وهو ما لم يتم إلى الآن.

فكتاب المقاصد نجده يتكلم عن المقاصد ومراتبها، ولكن لا يتكلم عن العلاقات البينية، فإن هذا محتاج إلى عمل كثير حتى نستطيع أن نُفعلها، أي نجعلها أداة أو آلة بيننا... إذا حدث هذا فهذه بعض ضوابط الاجتهاد، ولابد أن تكتمل من إدراك النص وإدراك الواقع، ومن الوصل بينهما، لابد أن يكون تحت سقف صريح النص والإجماع واللغة والمقاصد والمصالح والمبادئ والقواعد.

فإذا كان الاجتهاد على هذا الشكل من إدراكه للنص والواقع ومن الوصل بينهما تحت هذه المظلة، فإن اجتهاده اجتهاد صحيح، خاصة في الجانب المالي الذي نحن في أشد الحاجة إليه، لأن العبادات -والحمد لله- ليس هناك فجوات كبيرة فيها، ولا هناك مستحدثات تعكر صفوها أو تعطل مسائلها ومقاصدها وثمرتها بقدر ما حدث في عالم المال.

وبعد ذلك العرض، يتضح لنا مفهوم التجديد الذي نقصده وكيفيته، وهو بإدراك الواقع بعوالمه المختلفة، وربط الواقع بالمصادر مع الالتزام بالحدود الأساسية للمجتهد المسلم. ■

(*) مفتي الديار المصرية السابق.

محمد محمود عبد العال*

ابتهال مع موكب الحجيج

إلى الأرض الحرام سعت جموعُ ... يواكبها التبتل والخشوعُ
تلبي ربها الرحمن سعيا ... ودقات القلوب سنا يضوع
تقول لمن أراد لها خضوعا: ... لغير الله ليس لنا خضوع
فإن الله أكبر منك بطشا ... ومنك تبرأ الحاني يسوع

حجيج من فجاج الأرض جاؤوا ... بهم لأداء منسكهم ولوع
بحب الله يدفعهم هواه ... على بحر منابعه الدموع
فكم عاشوا على أمل حبيب ... ونار الشوق تحبسها الضلوع
تحقق حلمهم بعد اشتياق ... فأينع في قلوبهموا ربيع

حجيج البيت يا من أوفدتكم ... شعوب شدها أمل وجوع
إلى الرحمن إيمانا بوعد ... بنصر منه يرجوه الجميع
إلى قبر الرسول يفوح عطرا ... ومن غير الرسول لنا شفيع
حجيج البيت فابتهلوا بساح ... بها الإسلام حالفه الذيوع
لعل الله رب البيت يأسو ... جراح المسلمين.. هو السميع

(*) شاعر مصري.

أديب إبراهيم الدباغ*

الإنسان المعرفي

الإنسان المعرفي، هو ذلك الإنسان الذي يحاول أن يعرف نفسه التي بين جنْبيه، ويعرف العالم من حوله. والرغبة بالمعرفة نازع إنساني غريزيّ فطري، وهو دافع ملحّ يضطر الإنسان بسببه إلى البحث عن الطريق الموصلة إلى هذه المعرفة فَيَجِدُّ في سلوكها وقطع أشواطها.

فالنقطة الفارقة التي عندها يتحول الإنسان من مجرَّد كتلة جسدية ثقيلة، إلى طاقة روحية وفكرية، هذه النقطة الفارقة هي عندما يخطو الخطوة الأولى في هذه الطريق، فيغدو شكلاً آخر من أشكال الرقي الإنساني، التي تتوخّى الإنسانية ابتعاثه إلى العالم من بين أبنائها لكي يكون تاجًا على رأسها، تزهو به وتفخر أمام الكون والكائنات.

ولَمّا كان "المعرفي" بتميزه الفكري، هو أكبر وأوسع مِمَّنْ يستطيع الناس العاديّون والتقليديون فهمه وحتّى احتماله والوثوق به، لذلك -وكردّ فعل من جانبه- يبدأ بالانسحاب إلى أعماق نفسه، ليمحص فيها أفكاره، ويراجع معارفه وثقافاته. وقد يمضي في طريقه المعرفي وحيدًا متفرّدًا، دون شعوره بالحاجة إلى البحث عن رواد كبار كانوا قد مَرُّوا بالطريق نفسها من قبلُ، لكي يأنس بهم ويستعين بوجودهم على معرفة الطريق ومسالكها وشعابها وسهولها وحزونها.

فأهوال الطريق من الكثرة، بحيث تتطلب من سالكها الكثير من اليقظة والانتباه، والكثير من الرفقاء الروّاد الملمّين بشؤونها وأبعادها، وإلا أصابه التعب، وربما هلك وهو لم يقطع من الطريق إلا القليل.

ومن جانب آخر فإن تفرد "المعرفي" بنفسه في سلوك الطريق خطأ ذهني بالأساس، لأن الاستقلالية الفردانية وهم يقع فيه "المعرفي" لعدم التفاته إلى الحقيقة المشاهدة، مما يحيط بنا من أن الأشياء لا يستقل بعضها عن البعض الآخر، وأنه لا يمكن فهم شيء، إلا إذا اقترن وجوده بوجود شيء آخر. والإنسان -كذلك- لا يمكن أنْ يعرف ذاته حقّ المعرفة، إلا إذا اتصلت هذه الذات بالذوات الأخرى المختلفة معها وحتى المتشاكلة معها.

والمفتاح الذي يديره المعرفي في مغاليق ما يواجهه من إيهامات معرفية وإشكالات وجودية وهو يقطع الطريق إلى هدفه، إنما هو -أي المفتاح- فَعَّالية ذهنية مضنية، تهزُّ أعماق مداركه ليحظى من بعدها باللحظة المضيئة التي تضيء له معضلات الطريق، وترشده إلى وسائل تجاوزها... وهذه اللحظة المضيئة، تتنزل على سماء العقل بعد مجاهدة ذهنية مضنية، كالنجم الثاقب من وراء الغيب لكي تعينه على مواصلة السير على نور وهدى ويقين.

و"المعرفي" بفعل ذلك، مدفوعًا بقوى روحية وعقلية هائلتين، تقودان خطاه وتلازمانه في هذه الطريق، وتخلي هذه القوى عنه وتركه هناك وحيدًا، يشكل إحدى أشد الانتكاسات التي تفجع "المعرفي" في أخص خصائص وجوده كإنسان متميّز ومتفوّق، ونموذج مثال، واقتداء في اكتشاف حقائق العقل، واكتشاف ما تنطوي عليه الروح من عوالم لا زال اكتشافها سرًّا من أسرار أصحاب عظماء الروح في هذا العالم.

وتتبع خطوات "رجل المعرفة" في الطريق التي يسلكها، تمنحنا شيئًا من الطمأنينة؛ بأننا لا زلنا أحياءً فكريًّا، وبأننا لا زلنا نملك إرادةً تدفعنا لارتقاء الدرجات المعرفية التي ارتقاها والتعلم منها، وبأننا بهذه المتابعة نُكَفِّر عن الأيام التي انشغلْنا فيها عن اللحظات القدسية والانتشائية التي نحظى بها اليوم، من خلال مشاركتنا لرجل المعرفة باهتماماته المعرفية العالية، والإعجاب ببصيرته المدركة النافذة إلى ما وراء هذا العالم، والذي يجعل أذهاننا تستمتع إلى حد الانتشاء، بالْتماعات أفكاره وانعتاقاتها من سجون الأرض الدنيا، إلى صروح الروح التي يقيمها من مقالع فكره وروحه... وأقلُّ ما يمكن أن تفيدنا هذه المتابعة لرجل المعرفة، هو الخلاص من سأم البطالة الفكرية المدمرة، أو الوقوع في شباكات اللغظ الفارغ الذي يراد ملْأُ أذهاننا به. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

أ.د. عمار جيدل*

منزلة الفنون الصوتية في الرؤية الإسلامية

يتميز الإسلام -بوصفه الرسالة الإلهية الخاتمة- بعرض مضمونه وفق استعدادات الإنسان العقلية والقلبية والنفسية والاجتماعية، من ثم كان الإسلام دينًا فطريًّا، يراعي الفطرة في مجمل مكوناتها، فيشبع حاجة الإنسان للدين كما يشبع حاجته للقيم الإنسانية الرفيعة والأخلاق السوية، ويعرض كلّ ذلك في صيغ تراعي أسس موازين العقل. وبهذا يؤكد الإسلام بأنه منسجم مع الفطرة من حيث كون الفطرة يمكن التعبير عنها بالمعادلة الآتية.

الفطرة = الدين + المبادئ المدبرة للعقل + القيم الإنسانية الرفيعة + أخلاق الفطرة[1].

وفضلاً عن كونه كذلك، فقد استوعب حاجات الإنسان في جميع الأحوال (الفرد/الجماعة، الذكر/الأنثى، السلم/الحرب، الصغير/الكبير، الغني/ الفقير، الحياة/الموت، الدنيا/الآخرة...)، ووضع لها أطرًا تؤكد أنه من حيث مضمونه مراعيًا للفطرة التي عليها الإنسان في أصل خلقته. فلم يأت الإسلام مزاحمًا، فضلاً عن أن يكون مصادمًا لاستعدادات الإنسان وحاجاته، العقلية والدينية والأخلاقية والقيمية الإنسانية الكبرى. فكل ما كان من جنس ما سبقت الإشارة إليه، لا يكون إلا محل عناية واعتبار في صياغة الخطاب ومقاصده. لهذا كان الدين الإسلامي -مساعدًا في أصل وضعه- لاستعادة الإنسان فطرته، سواء تعلّق الأمر بالدين

أو العقل أو الأخلاق أو القيم الإنسانية الكبرى.

ولعل في قوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيما رواه الترمذي: "إنما بُعِثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق" ما يؤكد هذه المعاني. فإذا جاء الإسلام في شأن الأخلاق متمّمًا -أي، ما جاء ملغيًا مقصيًا لكل ما سلف- فإنه بالنسبة لسائر مكونات الفطرة لا يكون إلا كذلك، فقد جاء مساعدًا الإنسان لاستعادة الفطرة في جملة مكوناتها. يؤيد هذا المعنى ما ورد في الحكمة التي سارت بها الركبان: "الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقّ بها".

الفن مرتبط بالمرجعية الفكرية والدينية والإثنية للمجتمعات الإنسانية أو الرؤية الفلسفية، لهذا لا وجود لفن خارج عالم الإنسان الملون بالأرض والتاريخ والجغرافيا والعرق، ذلك أن الفن خصيصة إنسانية، فحيث وجد الإنسان وجد الفن، والفن بهذا المعنى، لا يكون إلا تصرفًا فطريًّا للإنسان في شعاب الحياة.

ومن القضايا ذات الصلة بالحكمة، مسألة الفن بصفة عامة والفنون الصوتية[٢] على وجه الخصوص. وإذا كان الفن وفق تعبير أهله "محاولات تعبيرية تستهدف تجسيد المشاعر الإنسانية" فهذا مما يراعيه الإسلام، ولا يمكن أن يمنع الناس من المنتسبين إليه من التعبير عن مشاعرهم الإنسانية أو تجسيدها، ذلك أنه دين يراعي استعدادات الناس وحاجاتهم، فضلاً عن كونه صيغ وفق ما ييسر لهم الاقتناع والإقناع.

الحدث الفني يتعلق بالشعور والأذواق، لهذا يصعب عرضه على المحاكمات العقلية. وبالرغم من كل ذلك، فالفن الأرقى، هو الذي يمتزج فيه الصدق مع الجمال وخدمة المقصد الإنساني. من هنا كان الفن الأسمى ممتازًا ومتميزًا بوظيفة رسالية ذات أبعاد اجتماعية ظاهرة وذوقية رفيعة وبيّنة، تسهم في السمو المعنوي والرقي المادي، تتسامى فيه النفس إلى رتبة سامقة، تتطلّع إلى القيم الإنسانية الرفيعة وخدمة المقاصد الإنسانية النبيلة.

الفنان المتزود بالمبادئ الإسلامية، المنبثق إبداعه الفني عنها، فنان يريد خدمة تلك المبادئ بوسائل فنية. فالإبداع في الفنون الإسلامية، منبثق عن القيم الأخلاقية المستندة إلى المبادئ المؤسسة للدين نفسه، وليس معنى ذلك أنها بمعزل عن الإنسان، بل هي متناغمة معه، ذلك أن الإنسان مفطور على حب الصورة الجميلة والصوت الشجي والأداء الحسن... وبما أن الإنسان مفطور على حب الجمال ويطرب للصوت الجميل، فلا يمكن رفض الفن الذي يمثل إما تعبيرًا بالرسم، أو تعبيرًا بالكلام -قولاً واحدًا- بل الأصل فيه الإباحة -على الأقل- وفق ما لا يتعارض مع المبادئ الشرعية، التي بدورها أتت وفق مقتضيات الفطرة الإنسانية في أصل الخلقة. من هنا نؤمن بمبدأ الاجتهاد في التعبير الفني، ومن ثم جواز الخطأ في البذل الفني، بشرط أن يكون الباعث على العمل الفني، السعي الدؤوب لتمثل الحقائق الإسلامية التي تتمحور حول التوحيد أساس الإيمان، والخير والسمو بالبشر إلى القيم الإسلامية المثلى.

الفن مرتبط بالمرجعية الفكرية والدينية والإثنية للمجتمعات الإنسانية أو الرؤية الفلسفية، لهذا لا وجود لفن خارج عالم الإنسان الملون بالأرض والتاريخ والجغرافيا والعرق، ذلك أن الفن خصيصة إنسانية، فحيث وجد الإنسان وجد الفن، والفن بهذا المعنى، لا يكون إلا تصرفًا فطريًّا للإنسان في شعاب الحياة.

ما حلَّ الإسلام بأرض وطلب من أهلها أن يخرجوا عما فطروا عليه، ذلك أنه دين الفطرة، يشهد لهذا المعنى ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جَدْعاء"، ثم يقول أبو هريرة ﷺ: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم. قال ابن حجر في فتح الباري: الكفر ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه، بل إنما حصل بسبب خارجي، فإن سَلِم من ذلك السبب استمر على الحق.

ومن الجوانب المتعلقة بالفطرة، تغنّي الإنسان وطَرَبه للصوت الشجي، فما دخَل الإسلامُ أرضًا وطلب من أهلها تغيير أنغامهم والألحان المتداولة بينهم، بل أقرهم على ما هم عليه، كإسعافهم على استعادة فطرتهم الدينية وفطرتهم العقلية والأخلاقية والقيم الإنسانية الرفيعة.

ما أخرجهم عن أنغامهم، بل زوّدها بالوجهة فأسعفهم

بالخروج من دائرة العبثية المؤسسة على اللذة والفن للفن، وجعل للفن رسالة إنسانية سامية، تنمّي في الإنسان الجوانب الفطرية وتسعفه على جعلها مندرجة في إطار الوجهة التوحيدية المستعادة (بالتذكير الفطري والمحاججة المؤسسة على الفطري من معارف العقل).

دليل ذلك، ما دخل الإسلامُ أرضًا ونادى المؤذنُ فيهم بالصلاة بغير أنغامهم وألحانهم المتداولة بينهم، وما أنشد منشد أو مدح مادح أو... في المسلمين في مختلف أصقاع الأرض بغير تلك الأنغام والألحان التي تطرب لها أسماع أهل تلك الأرض... بل يُسمَع أثر ذلك في ترتيل القرآن الكريم، ودليل ذلك واقع أنغام الأذان والترتيل والمديح شرقًا وغربًا، عربًا وعجمًا. فأذان المدينة المنورة مختلف عن أذان مكة، وهما متخلفان عن أذان إسطنبول، وهي بدورها متميزة عن أذان بغداد، وجميعها مختلفة نغمًا عن أذان المغرب الإسلامي، وفي المغرب الإسلامي نفسه تمايز؛ فالأذان الأصيل في الجزائر متميز نغمًا عن أذان تونس، وتميزهما نغمًا عن أذان المغرب (مراكش على قول إخواننا الأتراك)، ظاهر جلي، والتمايز نفسه ظاهر جلي في المديح والنشيد الديني ومختلف الأنغام.

يُستَشفّ مما سبقت الإشارة إليه، أن الإسلام دين الفطرة، ما أتى ثورةً على الناس في أمورهم الفطرية، بل أتى مسعفًا للناس لاسترداد فِطَرِهم التي أجلتهم عنها برامج مؤسسات صناعة الوعي ممثلة في التربية والتعليم والإعلام... وما جاء بأنموذج واحد في الأنغام يُقصِي بها البعضَ ويبقي على البعض الآخر، بل راعى ما درج عليه الناس من أنغام فثمّنها وزوّدها بالوجهة التي تجعل من الفنون الصوتية وسيلة مهمة لتربية الأذواق، وتبليغ المبادئ والقيم السامية التي جاء بها الإسلام.

وخلع الإسلام على الفن ميزته المتمثلة في الشمول، فلا يَقبل الإسلامُ الفصل بين الدين والدنيا، فكذلك الفن المعتبر في الإسلام، فهو ما كان خادمًا لذات الشمول ومعبّرًا عنه. فما كان مصادمًا للدين لا يكون مقبولاً للدنيا، وما كان مفسدًا للدنيا لا يمكن أن يقبل دينيًّا. ولا يُفهَم من ذلك أن الإسلام يُهمِل أحوال الناس وأوضاعهم فيجعل الجِدَّ قانونًا عامًا لا حيدة عنه كما يفهمه بعض أهلنا، بل القضية بحاجة إلى ضبط. فالإسلام وإن كان قانونه الجدّ، فمن دواعي استمرار الجد تعهّد النفوس بالترويح ساعة فساعة، وحديث حنظلة الذي أخرجه الترمذي يؤكد هذه المعاني: فقد ورد فيه أن أبا بكر مرّ بحنظلة وهو يبكي، فقال ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنّا رَأْيَ عين، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيرًا، قال: فوالله إنا لكذلك. انطلقْ بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: "ما لك يا حنظلة؟" قال: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنّا رَأْيَ عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: "لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة".

تمتاز الفنون الصوتية بجملة من الخصائص، رأسها الارتباط الوثيق بالمرجعية. رسالتها الرئيسة تبليغ الهداية الإلهية والتجاوب مع حاجة الإنسان للراحة والترويح لأجل المداومة على الجد، فتكون الفنون الصوتية معبّرة عن التوحيد في رؤيته للكون والحياة ومَنزِعِه لتنمية (التسامي) الإنسان وترقيته إلى ذروة الطاعة والتخلق بأخلاق النبوة؛ قصدُه استعادة الإنسان فطرته، ولكن في إطار عمل استئنافي يرفض البداية الصفرية في الفن، كرفضه البداية الصفرية في مبادئ العقل والأخلاق والقيم الإنسانية الرفيعة، بل جاء متمّمًا مثمّنًا لما بقيت الفطرة فيه سليمة. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

الهوامش

(١) يشهد له ما أخرجه البخاري في صحيحه: " الفطرةُ خمسٌ، أو خمسٌ من الفطرة: الختانُ، والاستحدادُ، ونتفُ الإبطِ، وتقليمُ الأظفارِ، وقصُّ الشاربِ.

(٢) راجع أطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل راجي الفاروقي، لوس لمياء الفاروقي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص:٦٢٠. استعمل مصطلح الفنون الصوتية الأستاذ الفاروقي بديلاً عن الفنون الموسيقية، واستعمل غيره الفنون السماعية، وهو مصطلح له حضوره القوي في أدبيات الصوفية عمومًا. والمصطلحان غنيان بالإيحاءات الإيجابية ومبعدان عن الإيحاء السلبي الذي يتسرّب من استعمال لفظ الموسيقى بمعنى استعمال الآلات لا بمعنى القول الموزون، فقد ارتبط في كثير من البيئات في العالم الإسلامي بالعبثية ومسالك المجون.

د. إسحاق بن عبد الله السعدي*

السلام وموقف الإسلام منه

تعد قضية السلام من القضايا الكبرى في التاريخ. وعلى الرغم من سلاستها وعذوبة لفظها وجنوح الفطر السليمة إليها، وكونها خيار العقلاء والحكماء -قديمًا وحديثًا- في تأسيس علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وفي العلاقات الخاصة والعامة التي تربط بين الأفراد والجماعات والدول والشعوب، إلا أن وقائع التاريخ ومجريات أحداثه، أغفلتها في كثير من الأحوال، أو تلاعبت بدلالاتها ومفهومها وأدخلتها حلبة المزايدات السياسية والتفسيرات الدينية المؤدلجة؛ كذلك تقاذفتها المطامع والمصالح وصراع القوى، مما يحدو بالباحث في هذه القضية الكبرى للنظر لخلفيتها التاريخية، إما كوسيلة للإمبراطورية، وإما كطريق للحضارة على حد تعبير المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله.

وفي دراسة لـ"سعاد الحكيم" بعنوان "نحو فلسفة للسلام الإنساني"، شخصت الكاتبة أسباب إخفاق مفاهيم السلام؛ كالمحبة والتسامح والحوار وقبول الآخر كجزء لا يتجزأ من الذات في ثلاثة أسباب:

السبب الأول: إن مفاهيم السلام بقيت عند الممارسة في إطار فردي نخبوي ولم تمس حياة الجماعة عامة. لا شك في أننا نجد أشخاصًا هنا وهناك وعلى امتداد العالم، يريدون السلام حقيقة، ويتحلون بالتسامح والمحبة، والقدرة على رؤية الآخر في الذات. ولكن هؤلاء الأشخاص لم يستطيعوا -للأسف- أن يشكلوا تيارًا أهليًا قويًا، وظل نشاطهم محصورًا في نخبة طائفية أو قلة فكرية.

السبب الثاني: إن مفاهيم السلام كما هي مطروحة اليوم، لا ترتكز على أسس سليمة، لأنها -كما يبدو- تسوَّق كسلع استهلاكية تهدف إلى الحصول على السلام من طرف واحد، تدعوه إلى التسامح اللامشروط المرتكز على المحبة فقط، والتي يبدو أنها مفقودة عند قطاع كبير في الطرف الثاني. إن السلام الحقيقي يفترض وجود طرفين يتبادلان الاعتراف بحق الكينونة، ويثق واحدهما بالآخر؛ بأن السلام من طرفه لن يعني انمحاء واستلابًا وازْدواجة معايير... إن لم توجد هذه الإرادة الصادقة من الطرفين، يظل السلام في إطار أقليات خيّرة وواعية، ولا يخرج إلى بدن الجماعات البشرية.

السبب الثالث: إن مفاهيم السلام هذه (المحبة والتسامح وقبول الآخر) تعاني من التوقف عند مرحلة تنظيرية تتسم بالفردانية التي لا يربطها رابط خارجي، ولا نسق داخلي يجمعها... لكأنها تجمع على هيئة "باقة زهر" يقدمها إنسان خيّر محبّ إلى الإنسانية. لذلك نحن أحوج ما نكون إلى توظيف هذه المفاهيم المفردة في منظومة فكرية تساعد كافة الناس -وليس النخبة فقط- على الرؤية والاقتناع وبالتالي الممارسة؛ أي نحن نحتاج لأن نخرج من مرحلة تنظيرية خطابية تبريرية عاطفية، إلى مرحلة أشد اتساقًا تجمع هذه المفاهيم المفردة، لتكوّن منها كلا متسقًا منتظمًا، لتؤسس منها فلسفة يقتنع بها عامة الناس، ولا تظل في حدود فردية عالية الروحانية.

وإذا كانت الكاتبة قد لامست إشكالية مفهوم السلام وأبرزت تلك الأسباب الثلاثة، فإن مفهوم السلام غني بدلالاته التي جرى الحديث عنها، كي يحقق البعد الحضاري الإنساني، بالعودة إلى الدين والأخلاق في إطار ثقافي يوازن بين الـ"أنا" والآخر، والفطري والمكتسب، والذاتي والموضوعي، والفردي والجماعي، والمحلي والإقليمي والعالمي.

وتتفق الكاتبة "سعاد الحكيم" مع كبار مفكري السلام العالمي، في أهمية ارتكاز مفهوم السلام على الدين؛ فتحت عنوان "بناء إنسان الإنسانية"، قالت: "من أجل إنشاء فلسفة للسلام، لابد -بالإضافة إلى كل ما تقدم- من التفكر حول هوية الإنسان الذي يحقق السلام الكوني. وجوابًا على الطروحات الداعية إلى بناء إنسان مدني، أقول إن القوانين المدنية تجعل الرّادع خارج الإنسان، وبالتالي ما إن تغيب سلطة الرادع الخارجي حتى يظهر توحّش الإنسان وهمجيته، على حين أن القوانين المصاغة -انطلاقًا من الأديان- يستجيب لها رادع داخلي، وتحقق النظام -إلى حد ما- في الداخل والخارج... إذن فمن مصلحة البشرية أن تدافع عن تكوين كائن مؤمن متقٍ أخلاقي... وهذا مشروع عملاق لا يقوم به طرف واحد أو أبناء دين واحد منفردين، بل لابد من تكاتف عالمي في هذا الإطار بين الشعوب وقيادتها الروحية. وفي هذا السياق تتفق الكاتبة مع المصلح الديني الألماني "هانس كينغ"، حين أطلق شعار "لا سلام بين الشعوب من دون سلام بين الأديان".

أثبتت الدراسات أن الأديان قاطبة، وخاصة الديانات الشرقية القديمة، والديانات السماوية الثلاث، دعت جميعها للسلام، وجعلته الأصل في العلاقات، وعظّمت من شأنه، وأنها جميعًا "تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الظلم والعدوان.

وتستمر الكاتبة في حديثها قائلة: "حتى لا يكون كلامنا على"الرادع الداخلي" جزءًا من "مدينة فاضلة" لا نرى مقدمات تحققها في أفق تاريخنا المنظور... نحصر الحديث فيما هو مباح ونقول إن كينونة الإنسان وحدة لا تتجزأ، وتعبر هذه الوحدة عن نفسها في جميع تجلياتها... فلو استطعنا -مثلاً- أن نصلح أداء الإنسان على مستوى تجل من تجليات ذاته، لربما ينعكس هذا الإصلاح على الكينونة نفسها؛ واستنادًا إلى قاعدة الوحدة الذاتية للإنسان، أي إذا استطعنا أن نعدل من الأداء العائلي للإنسان، لربما استقام في الوقت نفسه أداؤه الاجتماعي وكذا أداؤه على صعيد الإنسانية عامة.

ونضع بين يدي آفاق الحوار، ما نرصد من تجليات للكينونة الإنسانية في الجهات الأربع، مقتنعين أنه لا سلام بين الناس ما لم يتحقق السلام على المستويات الأربعة لتجلي كينونة الإنسان وهي: السلام الداخلي، السلام الاجتماعي،

السلام الأممي الكوني.

فالإنسان وحدة لا تتجزأ، والكون أيضًا يترابط بوحدة وجودية تجعل له هيئة تتلاحم لأولي البصائر في كافة المجتمعات".

موقف الإسلام من السلام

لم يكن موقف الإسلام من السلام بدعًا، بل جاء مصدقًا لما بين يديه من الأديان التي سبقته. فقد أثبتت الدراسات أن الأديان قاطبة، وخاصة الديانات الشرقية القديمة (الهندية والبرهمية والبوذية والكنفوشيوسية، والطاوية) والديانات السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) دعت جميعها للسلام، وجعلته الأصل في العلاقات، وعظّمت من شأنه، وأنها جميعًا "تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلها تسوي في المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها". فلم يقع -على سبيل المثال- من الديانة الهندية (البرهمية) في تاريخها أيّ اضطهاد، كذلك البوذية التي لم تعتد قط على أحد من مخالفيها، فقد كانت مبادؤها تحملها دومًا على سعة الصدر لأي خلاف، وأنه لا مشكلة لديها مع السلام البتة. وكذلك الديانة المسيحية ذات الطابع المتسامح الذي حملها على التواضع والسلام، بل الخضوع والاستسلام، فقد كان من شعاراتها "أحب جارك كما تحب نفسك"، و"من ضربك على الخد الأيمن فامدد له الخد الأيسر"، كذلك أوجبت على من يسفك دم أحد الطرد من حظيرة الدين.

كما أثبتت الدراسات كون السلام، من المبادئ الأساسية في الديانتين اليهودية والإسلام، وأنه لا يوجد مثال واحد أباح البدء بالاعتداء على الطوائف الأخرى، سواء كان ذلك لمقاصد دينية أم لأغراض سياسية، بل الواقع على العكس من ذلك، أنهما احتملا الاضطهاد أمدًا طويلاً قبل الإذن لأتباعهما باتخاذ القوة للدفاع عن حياتهم وعن حريتهم في اعتناق الحق والدعاء إليه.

أما الإسلام فقد تميز في موقفه من السلام، بكون اسم السلام نفسه واسم الإسلام نفسه، يرجعان لأصل واحد ويشتركان في كثير من الدلالات والاشتقاقات اللغوية بما فيها من سعة وامتداد وعمق. ثم إن الإسلام اتخذ من التدابير ما يكفل أن يكون السلام جوهر الإسلام، وظلّه وأساسَ معتقده، وأهم مبادئه، وركائزه العقدية، وقيمه الأخلاقية والتشريعية الكبرى، واختاره أن يكون تحيتَه.. فبالسلام البدء والنهاية والتواصل في مختلف دوائره على صعيد النفس والكون والحياة. ولإيضاح تلك التدابير، يجري الحديث عنها في الآتي:

١- التدابير التربوية الثقافية التي تعتمد على السلوك والأخلاق.

٢- التدابير التشريعية المقننة.

٣- التدابير الملائمة لسنن الكون والنفس والحياة.

فأما التدابير التربوية الثقافية، فقد استطاع الإسلام أن يغرس السلام في داخل نفس الفرد المسلم بالتربية والثقافة والسلوك والأخلاق. فقرر أولاً أن الناس من أصل واحد، وأنهم جميعًا أبناء رجل واحد هو آدم عليه السلام الذي جعله الله ﷻ خليفة له في الأرض، وسخّرها له، وكرّمه وفضّله على كثير ممن خلق، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، ثم أورث تعالى بني آدم تلك الخلافة، وتحمّلوا الأمانة، واضطلعوا بالمسؤولية... وهذا يوجب عليهم أن يستشعروا الكرامة والعزة، وأن تكون علاقاتهم سليمة، وضمائرهم نقية، وأن يتوجهوا لمن كرمهم واستخلفهم بالعبادة وإفراده بالتوحيد، وبخاصة أنه ﷻ قد حدد الغاية من خلقهم وعلة وجودهم فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦).

ولكون الأب واحدًا، والرب واحدًا، فإن "مقتضى اتحاد الأصول وتوحيد المعبود، تآلف الفروع وأخوة العابدين وتعاونهم جميعًا على القيام بواجب الرحم وبحق المعبود الذي يغضبه أن يبغي بعضهم على بعض.

ثم جاء النداء مكررًا في القرآن الكريم في آيات كثيرة بوصف البنوة لآدم، وبالنداء بوصف الإنسانية، وأنها موضع التكريم. كذلك حثت الآيات والأحاديث على مكارم الأخلاق، وأن تكون أساسًا للمعاملة: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

وفي الحديث: "خالِقِ الناس بخُلُق حَسَن" (رواه الترمذي)، وورد: "الدين المعاملة". وجاء كذلك الأمر بالعفو والمخاطبة بالسلام، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأعراف:١٩٩-٢٠٠)، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ

يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾(الفرقان:٦٣).

كما جعل الإسلام السلام تحية الصالحين، وبه يحيون أنفسهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾(يونس:١٠)، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(الأحزاب:٥٦)، وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾(النور:٦١).

ونهى عن دخول بيوت الآخرين، إلا بعد الاستئذان والاستئناس والسلام على أهلها: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾(النور:٢٧).

والآيات في ذلك من الكثرة بمكان، كذلك ورد السلام في القرآن الكريم تحية لجميع الرسل: ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾(الصافات:٧٩)، ﴿سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(الصافات:١٢٠)، ﴿سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:١٠٩)، ﴿وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾(الصافات:١٨١). وكان السلام دعوة عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(مريم:٣٣)، وناهيك عن كون السلام اسمًا من أسماء الله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾(الحشر:٢٣)، وسميت الجنة التي هي موعود الله لعباده المؤمنين "دار السلام": ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:١٢٧)، وأنه تعالى يدعو إلى دار السلام: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(يونس:٢٥).

وبهذا يتضح ترسيخ الإسلام لمبدأ السلام و"أن إشاعته تعالى للسلام في هدايته لعباده على هذا النحو، ما كان إلا ليغرس في سويداء قلوبهم حب السلام والعمل للسلام، وأن يعملوا جهدهم في التحلي بالسلام والدعوة إليه وإفشائه بين العباد.

فإذا عُلِم أن هذه الآيات وما تحمله من هدي وتوجيهات تطرق سمع المسلم في صلواته ودعواته، وأنها تصبغ علاقتها الخاصة والعامة الحاضرة والمستقبلة في الدنيا والآخرة، وأنها تدخل في معظم تفاصيل حياته وفي صميمها اتضحت مقاصد الإسلام من ذلك، وتبين أنه حوّلها إلى ممارسة بالسلوك والتهذيب والتربية والتعليم والتعود والمران، حتى غدت ثقافة ذات بُعد إنساني حضاري متجذر.

السلام في الإسلام، ينداح في دوائر بدءًا من سلام الفرد مع نفسه، إلى سلامه مع أسرته ومحيطه القريب، إلى سلامه مع محيطه وبيئته بموجوداتها وتنوعاتها الثرية من الكائنات الحية والنباتات المختلفة في البر والبحر والجو.

أما التدابير التشريعية المقننة، فقد جعل الإسلام الأصل في العلاقات هو السلم، فالسلم أمر الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(البقرة:٢٠٨). وقد تضمن الأمر به التعريض بما يقابل السلام وهي الحرب، وأنها اتباع لخطوات الشيطان على أن الحرب إن نشبت في ظروف وملابسات استثنائية -لا يوجدها الإسلام قطعًا وإنما يفرضها أعداؤه عليه- فإنها حينئذ تقدر بقدرها وتُحَدّ بحدود وتحاصر بضوابط وآداب شرعية، ومع ذلك فإن الإسلام يأمر بأن يكون السلم هو الخيار، وأن يُجنحَ إليه إذا جنح إليه الطرف الآخر: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾(الأنفال:٦١).

كذلك جاء النهي عن القتال بعد نشوبه إذا ألقى العدو إلى المسلمين السلم، قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(النساء:٩٠).

كتبت الدكتورة أميمة بنت أحمد الجلاهمة تحت عنوان: "السلام في علاقات المسلمين بغيرهم"، بعد توضيحها لطابع الإسلام السلمي في علاقاته مع الآخرين، بأن ذلك: "لا يعني تهاون المسلمين في ردّ أي عدوان وُجّه للمقدسات والأوطان، ولثروات الأمة البشرية منها والمادية على السواء. فالرد في هذه الحالات يكون واجبًا شرعيًّا كما هو واجب وطني. وحال المسلم في هذا الردّ كحال كل الأمم التي تقف صفًّا واحدًا في وجه أي اعتداء يَطال مقدساتها وأرضها وعرضها. ولكن المسلم في كل أحواله، ومهما استفظعت الأسباب الموجبة للحرب والمقاومة المسلحة، لا يمكن أن يكون ذلك توجيهًا نابعًا من اجتهاد شخصي ينبري للقيام به من تلقاء نفسه. فللحرب في الإسلام نظم وأصول ملزمة

لا يجوز للمسلم الخروج من خلالها عن طاعة ولي الأمر وإجماع الأمة. فالحرب في الإسلام قرار دولة لا قرار فرد مهما علا شأن هذا الفرد في أمته".

أما التدابير الملائمة لسنن الكون والحياة والنفس الإنسانية، فإنها ذات نسق وسياق يؤكد إعجاز الإسلام، وتؤيده الاكتشافات العلمية والدراسات المتعمقة في فقه التاريخ والحضارة والدراسات الإنسانية... والحديث عن ذلك لا يمكن اختصاره في هذا المقال، إنما أكتفي بالإشارة إلى كون السلام في الإسلام، ينداح في دوائر بدءًا من سلام الفرد مع نفسه، إلى سلامه مع أسرته ومحيطه القريب، إلى سلامه مع محيطه وبيئته بموجوداتها وتنوعاتها الثرية من الكائنات الحية والنباتات المختلفة في البر والبحر والجو. وما تمارسه المنظمات الحديثة التي تصدت لهذا الجانب تحت مسمى "السلام الأخضر"، تتفق مع ما سبق إليه الإسلام من العناية بهذا الجانب واشتماله بتشريعاته وحمايته للحياة الفطرية وإنمائها، وأن مفهوم السلام وفلسفته في الإسلام، شكلت دائرة واسعة تحيط به وتحافظ على التوازن البيئي بوعي وإدراك حضاريين.

فالسلام في الإسلام مفهوم أصيل وفلسفة عميقة يفي بمتطلبات البشرية قاطبة، كي تعيش حياة كريمة وتنعم بالأمن والاستقرار، في ظل أخلاقيات تطبع النفوس بروح التسامح وحسن التعامل مع المخالفين في المعتقد من غير تعصب لمعتقد ولا حقد ديني يحمل على الحيف والظلم ومن غير تطرف ولا عنف، وإنما تقوم العلاقات بين المسلمين وغيرهم، على البر والعدل والإحسان والتوسط في المواقف والتوازن بين التجاذبات. وبذلك حقق الإسلام في موقفه من السلام البُعد الإنساني الحضاري الإستراتيجي. ولضمان أن تكون السيادة للسلام حاضرًا ومستقبلاً، فإنه ينبغي اعتماد الإصلاح السياسي بدعم الديمقراطية وفسح المجال للنقد والشفافية واحترام التشريعات الإليهة، وتقييد التقنينات التي تميلها متطلبات الواقع بالأخلاق الحميدة، وأن تصبغ بالمبادئ الإنسانية من خلال علماء الدين وفلاسفة الإنسانية وحكمائها والنخب الثقافية. وإذا كانت الأديان -وآخرها الإسلام- هي المؤسسة للسلام على النحو الذي جرى الحديث عنه، فإن على قادة الفكر والسياسة ورواد السلام، أن يفسحوا المجال للتثقيف والتهذيب الديني، وبخاصة للثقافة الإسلامية بما تنطوي عليه من خصائص وسمات إنسانية وأطر عالمية من حقها أن تتفاعل مع الثقافات الأخرى في أجواء من السلم والمسالمة بعيدًا عن روح العداء، وأن يُعْلَم -كما قرَّر علماء الدين ومفكرو العصر- "أن الأديان كلها، بدلا من أن تكون سبب نزاع وخصام في شؤون هذه الحياة، -وهي على ضد من ذلك- تنادي بالائتلاف والوئام، وأن السبب الحقيقي في الخصومات هو بالعكس من ذلك، إنما يحدث بتعمد الانحراف عن الدين، وأن كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين، فهي كاذبة في دعواها الانتساب إلى دينها، وأن العلاج الناجع لآلام الإنسانية الحاضرة، هو أن يُعنى رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخُلقي العام منه، فينمّوا في أتباعهم عاطفة الأخوة الإنسانية باسم الدين نفسه.

كما ينبغي العمل باسم السلام ومن أجل السلام على معالجة ما آل إليه السلام في النظم البشرية الحديثة، حيث اتخذته الأمم المتقدمة والمتخلفة شعارًا لمضامين أخرى؛ فأما الأمم المتقدمة فترفعه في بعض الأحوال شعارًا لتعايش الثقافات، بهدف تثبيط همم الأمم الأخرى وتخديرها تمهيدًا لغزوها، وأما الأمم المتخلفة فترفعه بسبب الروح الانهزامية والضعف.

كما بدأ الحديث بمقولة مالك بن نبي، ينتهي وبالمطالبة التي طالب بها يُطالب؛ إذ يقول: "فالثقافة الحضارية ينبغي أن تُعطِي لفكرة السلام شخصيتَها الحقيقية بأن تضعها منذ الآن تحت ضمان المبادئ". ■

(*) كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بـ"الرياض" / المملكة العربية السعودية.

المراجع

(١) مقالة بعنوان: نحو فلسفة للسلام، لسعاد الحكيم.

(٢) دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، لمحد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط:١٩٨٠م.

(٣) من توجيهات الإسلام، لمحمود شلتوت، دار الشروق، ط:١٩٨٣/٧م. نقلا عن نظرات في الإسلام.

أ.د. أحمد عبادي*

توجيه النقد اللاذع دون الإتيان بالبديل، عمل تخريبي لا يَترُك إلا خرائب وأنقاضًا، أما النقد البنّاء مع ذكر البديل فهو سبب للإصلاح والإعمار.

* * *

(الموازين)

المسلمون وحقوق الإنسان-١

قراءة في المقتضيات السياقية

ركّز التداول حول كونية حقوق الإنسان في عمومه، كثيرًا على إشكالية مدى مخالفة أو مواءمة القانون العالمي لحقوق الإنسان للممارسات التشريعية والثقافية المحلية، كما رام هذا التداول فكّ العُقَد بهذا الخصوص لصالح البراديغم الكوني... ويلاحظ بجلاء، أن عناية أقل بكثير، قد أوليت إلى البحث عما يمكن أن يفيده ويَثْرى به الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بدراسة الأنساق التشريعية والثقافية الكونية المختلفة.

وقد طرحت كونية حقوق الإنسان، تحديات معتبرة على المختصين والباحثين، من أمثال[١] Kimberly Younce Schooley، وعبد الله أحمد نعيم[٢]، Charles Taylor[٣]، و Fernando R. Teson[٤]، ورضى أفشاري[٥]، وغيرهم.

ولا يخفى أن هذه المسألة تكتسي أهمية استثنائية من الناحية البرجماتية العملية الصرف، بالإضافة إلى أهميتها العلمية والمعرفية، وذلك لأن التجانف، بل والتنكر للحقوق الإنسانية، أمر في غاية الورود إذا لم تراع أثناء عملية تنزيلها، مواءمتها الثقافية للسياقات الحضارية، والأنثربولوجية

المستقبِلة. ولأن المصداقية الثقافية لهذه الحقوق لدى المتلقين محورية في عملية تملكهم لها، فإنه ينبغي تشجيع الجهود الرامية إلى تعويض الفرض والإقحام والإلزام بالتوطين والإفهام والإسهام. وذلك ليس فقط من أجل ضمان مشروعية حقوق الإنسان في مختلف المجتمعات، ولكن أيضًا لما يتيحه هذا الأمر من إمكانات في المجال الحقوقي؛ للإفادة والربح المتبادلين، بسبب تضافر وتواشج أضرب الخبرة والحكمة العالمية الغنية والمتنوعة، مما من شأنه أن يجعل حقوق الإنسان -كما هي متعارف عليها كونيًا- أكثر جاذبية، وأوفر قابلية للتطبيق والتبني في كافة المجتمعات.

إلا أن جملة صعوبات تعترض سبيل هذا الطموح، ومن أبرز هذه الصعوبات؛ الاختلاف الجوهري بين الأسس البراديجماتية التي تنبني عليها التشريعات الكونية لحقوق الإنسان، وتلك التي تنبني عليها كثير من التشريعات العالمية الأخرى. وأبرز مثال على هذا الاختلاف الجوهري، كون الحقوق في القانون العالمي لحقوق الإنسان صريحة ومباشرة، في حين أن ما يقابلها من واجبات، متضمنة -وقد تكون أحيانًا متضاربة- وهو ما يشير إليه "دوكلاس هودكسون" (Douglas Hodgson) بقوله: "في قانون حقوق الإنسان، الحقوق صريحة ومباشرة، في حين أن ما يقابلها من واجبات تبقى متضمنة ومتضاربة وغير مغناة من الناحية التنظيرية، بيد أن العكس هو الصحيح في عدد من المنظومات التشريعية والقيمية والعقدية الأخرى، كالشريعة الإسلامية، والشريعة اليهودية، والنصرانية، والهندوسية، والكنفوشيوسية"[٦].

ولأن المقاربة المؤسسة على الحقوق، وكذا تلك المؤسسة على الواجبات، كلتاهما تصدران عن رؤية براديجماتية متجذرة لها تجلياتها في سائر مفردات الكسب التشريعي والتنزيلي للمنظومتين، فإنه لا يمكن الزعم بأن التوفيق بينها يمكن أن يتم بدون بذل ما يلزم من جهد واجتهاد في أفق الإسهام في حل عدد من الإشكالات المطروحة بهذا الصدد كونيًا.

وتبتغي هذه الدراسة وضع جملة لبنات وظيفية، تسهم في التعزيز التعارفي لمقاربة "النسبية المعتدلة المعكوسة" (Reverse Moderate Relativism: R.M.R) والتي تختلف عن مقاربة "النسبية الثقافية المعتدلة" (Moderate Cultural Relativism: M.C.R)، حيث إن الأولى تعنى بالنظر التعارفي المنفتح، إلى ما يمكن أن تغني به المنظومات التشريعية المختلفة، منظومة حقوق الإنسان الكونية، بيد أن الثانية تقتصر على النظر في كيفية زرع وفسل منظومة حقوق الإنسان في المنظومات التشريعية الأخرى[٧].

غير أنه مع انبثاق الجيل الثالث من حقوق الإنسان، الحقوق التضامنية؛ كالحق في البيئة السليمة والحق في السلام والحق في التنمية، تبين أن مكوّن الحقوق يفتقر إلى التواشج مع مكوّن الواجب في طفرة متجاوزة لما كان عليه الأمر في الجيلين السابقين من حقوق الإنسان، جيل الحقوق المدنية والسياسية ثم جيل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، المرتكزين على البراديغم القائم على الحقوق فقط. وسبب ذلك، على حد تعبير الباحث Ben Saul: "إن النضالات التي قامت بها حركة حقوق الإنسان ضد الاستبدادات المختلفة في مرحلة أولى وفي مرحلة ثانية، ضد النفاقات الاجتماعية، والإقصاء، ونقائص النضالات السالفة، والتي ارتكزت جميعُها على مواجهة ما كان يفرضه المتنفدون من واجبات ظالمة على الأفراد، فقد بلورت حركة حقوق الإنسان حذرا وحساسية تلقائيين، تجاه كل لغة فيها حضور لمفاهيم الواجب والإلزام، وهما حذر وحساسية مبرران، بالنظر إلى تاريخ هذه الحركات النضالي"[٨].

ومن هنا تأتي المعاناة التي ترافق السعي إلى تنزيل الجيل الثالث من حقوق الإنسان، والتي تستدمج في عين بنيتها، ضرورة الارتكاز على الواجبات أيضًا، بإزاء الحقوق التي لا يمكن جلبها للأفراد إلا إذا كان لديهم الاستعداد للقيام بواجباتهم بهذا الخصوص. فمثلاً، لا يتصور النهوض بتنمية بدون انخراط الأفراد في هذا النهوض من خلال القيام بواجباتهم بهذا الصدد. مما يستدعي وجوب مواكبة هذه الحقوق أولاً: بنسيج تأهيلي، تصوريًا، وتربويًا، ونضاليًا، وتقويميًا بطريقة قصدية، وإلا فستبقى الحقوق التضامنية مجرد شعارات. ومواكبتها ثانيًا بنسيج تشريعي احترازي، لحمايتها من الارتداد إلى أتون الدولانية (Etatism) من جديد كما يقول "دون. إي. إيبرلي" (Don. E. Eberly) في كتابه Building a Community of Citizen.

وجليّ أن هذا التواشج بين الحقوق والواجبات، من خلال الاستمداد من مختلف المرجعيات تأسيسًا على مكتسب حقوق الإنسان في كونيتها وعدم تجزيئها، يمكن أن يسهم في اختراع مفهوم دينامي للمواطنة في عالم اليوم المعولم، في منأى عن الشعاراتية، وفي حرص على بحث عقد اجتماعي،

فيه التجانف عن الاقتصار على الإستراتيجيات الفوقية، والتشريعات غير المرفقة بالتدابير الإجرائية التنزيلية على أرض الواقع، في مراعاة لكافة مقتضيات السياق.

أولاً: المرتكزات

يروم هذا المبحث الأول، إبراز المرتكزات التي يتأسس عليها مقصد ضمان حقوق الإنسان في الإسلام.

أ- التكريم:

يشكّل مبدأ التكريم الإلهي للبشر، معلمًا بارزًا من المعالم التي تستنبط منها مقصدية ضمان حقوق الإنسان، وذلك تأسيسًا على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فحين يتم تجذير الوعي بالتكريم في كيان الفرد، وتتم مواكبة ذلك بإتاحة المقومات الديداكتيكية للتنشئة، والمقومات التشريعية للنهوض والحماية[٩]، فإنه يسهل أن ينبثق في حالة تهديد هذا التكريم، مثل رد فعل عمر بن الخطاب ﷺ المشهور حين قال لعمرو بن العاص وقد ظلم قبطيًا: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"[١٠].

ومن مقومات هذا التكريم في القرآن والسنة:

١- الإيجاد[١١]

٢- تكريم إحسان التقويم: وهو المشار إليه في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)، وكذا الآية: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(التغابن:٣).

٣- تكريم إعظام الدور: وهو تكريم يظهر من خلال التكليف بإعمار الأرض كما في الآية: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١)، والآية: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:١٠)، وكذا الآية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾(طه:٥٣).

ويسجل بهذا الصدد أن ارتكاسًا كبيرًا حصل بعد فترة التأسيس هذه، لأسباب متداخلة لا يتسع المقام هنا لذكرها[١٢].

٤- الخلافة: تعكس خلافة الإنسان في الأرض أسمى مراتب التكريم الإلهي؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٣٠).

٥- التسخير: كما في الآيات: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤)[١٣].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥).

٦- إيداع القدرة على وسم الأشياء من أجل تعقلها، وتوظيفها: قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٣١)، مما يمكن الإنسان من تنمية قدراته الإدراكية التي تسعفه في تنمية استقلاليته من خلال تزايد قدرته على الفعل في الكون بالتسخير، ولذلك يسمي بعض الباحثين العلوم الكونية "علوم التسخير"[١٤].

٧- الوحي/الكلمات: وهو المستفاد من العديد من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(البقرة:٣٧)، والآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾(البقرة:١٢٤).

والإفادة من قدرة الأسماء ومن إيتاء الكلمات، لا يمكن أن تتم في منظومة الوحي إلا بالنظر والتفكّر والتعقُّل؛ فالاستدلال بالأدلة من أوجَبِ الواجبات بعد الإيمان الفطري الجبلّي. وإلى هذا ذهب البخاري -رحمه الله- حيث بوَّب في كتابه "باب العلم قبل القول والعمل لقول الله ﷻ": ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩).

٨- إتاحة العلاقة المباشرة بين العبد وربه: فقد ألغى الشَّارع الحكيم أيَّ وساطة بينه وبين عباده تفسد الاعتقاد الجازمَ به سبحانه[١٥]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

٩- الحرية: قال الراغب الأصفهاني: "الحرية ضربان: الأول من لم يجر عليه حكم الشيء، نحو "الحر بالحر". والثاني: من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحرص والشره على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضاد ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار"، وقيل: عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ"[١٦].

وقال الجرجاني صاحب التعريفات: "الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة: الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار، وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات. وحرية الخاصة عن رق المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق. وحرية خاصة الخاصة عن رقّ الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلّي نور الأنوار"(١٧).

وهو ما ينص عليه القرآن الكريم في الآية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، وفي الآية: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨)، وكذا الآية: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩)،وفي الآية: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾(الإنسان:٢٩)، وفي الآية: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس:٩٩)، وفي الآية: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢٢).

وقد سيقت كلمة "إكراه" بالتنكير في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، والتنكير عند علماء الأصول، يفيد الاستغراق لكل مرتبة أو نوع من الإكراه. قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- في تفسير آية نفي الإكراه؛ البقرة ٢٥٦: "جيء بنفي الجنس لقصد العموم نصًّا، وهي دليل إبطال الإكراه بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال والتمكين من النظر"(١٨).

وما أجمل ما قال عبد المتعال الصعيدي بهذا الصدد في كتابه "حرية الفكر في الإسلام": "مثل المرتد مثل الكافر الأصلي في الدعوة إلى الإسلام، فكما يُدْعَى الكافر الأصلي في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن، كذلك يدعى المرتد إلى العودة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن، ولا يكره على العودة إليه بوسيلة من وسائل الإكراه، كما لا يكره الكافر الأصلي على الإسلام بهذه الوسائل أيضا"(١٩).

وقد أحسن بعض الدارسين حين فكك الردة إلى قسمين: مركبة، فيها الارتداد عن الدين ومفارقة الجماعة والعمل على إلحاق الأذى بها، وردة بسيطة فيها الارتداد عن الدين فقط. وقد ذهب العلماء إلى أن الردة غير المركبة تجري عليها أحكام قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(٢٠).

فالحرية في المنظومة التشريعية الإسلامية هي الأصل، قال محمد الطاهر بن عاشور: "الحرية وصف فطري نشأ عليه البشر، وبه تصرفوا في أول وجودهم على الأرض، حتى حدثت بينهم المزاحمة، فحدث التحجير"(٢١).

ب- التكليف:

يبرز الإنسان في منظومة الإسلام الاعتقادية والتصورية، باعتباره الجسر الكوني المؤهَّل الذي تعبر منه القيم والأخلاق، والتشريعات الحاملة لمراد الله التكليفي من الإنسان تجاه نفسه ومحيطه الكوني، إلى البعدين الزماني والمكاني، لتصبح جزءًا من التاريخ والحياة. ويبرز التكليف الملقى على عاتق هذا المخلوق (الأمانة): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢)، باعتباره تكليفًا لا يعرف حصرًا ولا حدودًا، إذ الكون كله في هذه المنظومة مسرح لفعل الإنسان وعتاد له. فالنوع الإنساني كله موضوع فعله الأخلاقي، كما الكون كله.

وتبرز مقومات القيام بالواجب في هذه المنظومة الاعتقادية والتصورية من خلال:

١- تزويد الإنسان بالعقل وجعله مناط التكليف: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨).

٢- المواءمة بين الإنسان والكون من جهة "التسخير": ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣)، وبين الإنسان والوحي من جهة ثانية "التيسير": ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:٤٠).

٣- قصدية الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

٤- بنائية الشرع والعقيدة ووحدتهما ومفهوميتهما، فمقاصدُهما، وأوامرهما، ونواهيهما واضحة قابلة للتعقل، ومتكاملة تحرر تماسكًا يُمكِّن من تحديد الأولويات وتبيُّن مراتب الأعمال.

ويعتبر تكليف الإنسان بتزكية نفسه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠)، إفادة بالتأسي ممن تم تكليفه بريادة هذا الفعل عمرانيًّا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢).

يعتبر هذا التكليف، رافعة عملية تستند على الواجب إزاء الحق، لتمكين الإنسان فردًا واجتماعًا من ضمان الحقوق

والاسترواح في ظلها؛ لأن التزكية بهذا المقترب القرآني ذات حمولة وظيفية وليست فقط استيطيقية.

جـ- الجزاء:

وهنا يبرز دور المسؤولية والمحاسبة؛ إذ برز أن على الإنسان مسؤولية العمل في ذاته وفي محيطه، وفق قيم الوحي الحاكمة وشرائعه الموجّهة. وقد زوّد بالقدرات التي تُمكّنه من الاضطلاع بذلك، وكان الكون قابلاً لفعله مسخرًا له، وكان الوحي مُيَسَّرًا له متستجيبًا لتساؤلاته: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل:٨٩). فإن ذلك يستتبع المحاسبة التي يُجزى بمقتضاها المحسنون عن إحسانهم، والمسيئون عن إساءتهم. وهذا البناء هو الذي يحرر الشعور المتسامي بالواجب، وهو شعور انزرع في نفوس المسلمين، فأثمر المسلكيات والممارسات التي رفعت، في جمالية صرح الحضارات والثقافات الإسلامية المتنوعة.

وهو ما انتبه إليه الباحث الأمريكي Jason Morgan Foster حين قال: "ولأن الواجبات لها مركزية في الاعتقاد والتطبيق الإسلاميين، فإن لغة وبنية الواجبات تطورت في الشريعة الإسلامية، وهما إلى حد بعيد أكثر تركيبًا من الإحالات البسيطة إلى الواجبات التي نراها في الإعلانات العالمية لحقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية عبارة عن مخطط عمل اجتماعي عقلاني المعنى لكل أفعال المسلمين، والتي قد أُطّر مجملُها من مدخل الواجب"[٢٢].

وفي التراث العلمي الإسلامي وفرة من الشواهد تؤكد ما انتبه إليه هذا الباحث. منها ما جاء عن إمامنا مالك ﷺ أنه سئل عن طلب العلم أفرض هو؟ فقال: "أما على كل الناس فلا" يعني به الزائد على ما لا يسع المسلم جهله من أركان وغيرها... وقال أيضًا: "أما من كان فيه موضع للإمامة فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب، والأخذُ في العناية بالعلم على قدر النية فيه"[٢٣]، فانظر إلى هذه الدقة في التمييز بين الواجب ومناطه. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) Kimberly younce schooley, Comment, cultural Sovreignty, Islam and Human Rights, Toward a communitarian Revision.

(٢) AbdullahAhmedAn-Naim:HumanRightinTheMuslimWorld.

(٣) في كتابه Multicultiralism and the politic of recognition

(٤) FernandoTeson;InternationalHumanRight,andculturalrelativism.

(٥) Reza Afshari an Essay on islamic cultural relativism in the discourse of Human Rights.

(٦) Douglas Hodgson, Individual duty Within a Human Right Discourse pp: 41- 60, 2003.

(٧) انظر Jason Morgan Foster كتاب جامعة ييل عن حقوق الإنسان والتنمية ٦٩/٨.

(٨) Ben Saul, Supra-note 62, at 616.

(٩) ومن ذلك الوفرة في الآيات والأحاديث التي واكبت التنشئة والتشريع، من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٣٤)، وقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(ص:٧٢-٧٣)، وقوله ﷺ عند طوافه بالكعبة: "ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك. والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك" (رواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٦٣٠/٢). وقوله ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله" (أخرجه مسلم رقم الحديث ٢٥٦٤)، وغير ذلك من الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة.

(١٠) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١٠/٢.

(١١) من أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾(المومنون:١٢)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٧)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾(الحجر:٢٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾(الروم:٢٠).

(١٢) انظر بهذا الخصوص، كتاب الإسلام وهموم الناس، أحمد عبادي، كتاب الأمة العدد:٤٩، الدوحة ١٩٩٦م. وانظر أيضًا نماذج عائشة رضي الله عنها، وأبي ذر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير من الصحابة ﷺ، وفي جيل التابعين نماذج سعيد بن جبير، وأبي مسلم الخولاني، وفي جيل أتباع التابعين نماذج أبي حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وغيرهم.

(١٣) وفي القرآن الكريم نسيج متكامل في الآيات بهذا الصدد، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾(لقمان:٢٠).

(١٤) أحمد عبادي، مفهوم الترتيل في القرآن المجيد: النظرية والمنهج.

(١٥) كاتخاذ كفار مكة الأصنام واسطةً، وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾(الزمر:٣).

(١٦) مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة:٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص:٢٢٤.

(١٧) التعريفات، تحقيق الأبياري، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ط:١٩٨٥م، ط:١١٦.

(١٨) التحرير والتنوير، الشركة التونسية للتوزيع، ٢٦/٣.

(١٩) حرية الفكر في الإسلام، ص:٧٣.

(٢٠) أحمد الريسوني في العيد من حواراته.

(٢١) الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار الكتاب، تونس، ط ١٩٧٧م، ص:١٦٢.

(١٠) YALE, human rights and development, Vol.8 pp.106.

(٢٢) الموافقات، ٢٨٢/١.

(٢٣) قال ربعي بن عامر تعبيرًا عن المقصد الكلي للإسلام، في جوابه لرستم بعد أن سأله: "لم جئتم؟" قال ﷺ: "ابتُعِثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..." ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، ط١٩٧٩م، ٢٣/٣ فما بعدها، أحداث سنة ١٤ هجرية.

د. سمير بودينار*

رسالة حراء الخفاقة في الآفاق والأنفس

على الربوع الشاسعة أطلت بالحب... متنقلة كالنحلة الدؤوبة المعطاء بين الرياض المزهرات في كل الأنحاء، على نأي المسافات وتباعد الديار بين الأقطار، بل القارات. إذا كان العسل المصفّى خلاصة رحيق الزهر، فإن شهد "حراء"، ثمرة الحب المتبادل بينها وبين جمهورها الواسع في كل مكان. وحيثما وُجِد جمهور حراء حلّت ملبية، واصلة رحم المعنى ووشائج الفكر. وعلى هذا كان اللقاء... في أكثر من دولة وقارة ومؤتمر، من مشرق الشمس في أستراليا، وعلى ربوع أرخبيل أندونيسيا، إلى موطن الجمال في البوسنة. واصلة "حراء" ما انقطع من صلات العرفان والحكمة، ومخاطبة جموع المسلمين في تلك البلاد، وغير المسلمين كذلك من أرباب العقول الوثابة للمعرفة، والنفوس المتزنة بالفضل في كل مكان، تحقيقًا لمقصد التعارف بين الناس من شعوب الأرض... أما كانت حراء دوما محضن الرسالة للعالمين؟!

فوق ربوع أستراليا

على مدار الأيام الخمسة بين السابع والحادي عشر من فبراير ٢٠١٣ كانت "حراء" هناك... في أستراليا، تتابع مسير الركب المنطلق في ربوعها الخضراء الشاسعة، وتتواصل مع الجمهور الأسترالي من خلال مؤتمريها الكبيرين في "سيدني" و"ميلبورن"، المنعقدين ضمن سلسلة "مؤتمرات حراء".

فبالإضافة إلى برنامج لقاءاته وزياراته المتنوع للمؤسسات الإسلامية والتعليمية والثقافية ومراكز الحوار في أستراليا، شارك وفد حراء الذي ترأسه الأستاذ مصطفى أوزجان مستشار المجلة، وضم الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على المجلة، ومجموعة من "علماء حراء" من الأكاديميين، في مؤتمرين علميين موضوعهما "المنهاج النبوي: من الإنسان القدوة إلى المجتمع المثالي".

مدينة سيدني، الجامعة بين سحر طبيعتها الخلابة، ودفء المشاعر المنبثقة من قلوب أبنائها الجدد ونضارة عزمهم، احتضنت يوم ٩ فبراير المؤتمر الأول، المنظم بشراكة بين مجلة حراء ومؤسسة "إسرا" (ISRA) الأكاديمية التي تنشط في مجالات التعريف بالإسلام في أستراليا، حتى صارت مرجعًا في قضاياه لكثير من الجهات العلمية والحكومية، بفضل ما أنتجته من دراسات حول موضوعات الإسلام والاندماج وشؤون المسلمين في البلاد، وما تعقده من دورات تدريب للأساتذة والطلاب من أبناء المسلمين بالبلاد، الذين يعدون بمئات الآلاف (يمثلون ٢,٢٪ من مجموع سكان البلاد)... المؤتمر الذي كان محط اهتمام وسائل الإعلام المحلية، واستضافت محطات الإذاعة ضيوفه للحديث معهم عن مضامينه، مثَّل استعادة حية لمفهوم الأمة الواحدة وروحها الجامعة. فهو قد انعقد في أستراليا، الجزء الجديد من "عالم الخدمة"، والمجتمع المتواضع في انفتاحه على الآخر واهتمامه بالتعرف على كل جديد... ومن هنا تجليه كمجال للفرص الواعدة أمام خطاب الإسلام للإنسان إذا ما أحسن تقديم مضمونه بالحكمة، ونشر دعوته بالتلطف والحسنى.

ثم إن المؤتمر قد تميز بحضور وازن لقيادات البلاد الدينية والعلمية، وبمشاركة أساتذة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ حيث حاضر من العالم العربي البروفيسور محمد عبد الله الشرقاوي من مصر، والدكتور محمد بن موسى باباعمي من الجزائر، والدكتور سمير بودينار من المغرب،

مؤتمر حراء، سيدني، أستراليا.

أ.د. إبراهيم أبو محمد، مفتي أستراليا العام.

أ.د. محمد باباعمي، الجزائر.

أ.د. محمد عبد الله الشرقاوي، مصر.

ومن تركيا الأستاذ مصطفى أوزجان والأستاذ نوزاد صواش. فكأنما هي الأمة الواحدة التي لا تعرف رسالتها حدودًا، تتجلى إشراقاتها في تلك المفاوز النائية.

افتتح المؤتمر بكلمة مفتي القارة الأسترالية فضيلة الدكتور إبراهيم أبو محمد، التي تمحورت حول النبي الأكرم ﷺ بوصفه سراجًا منيرًا، استنارت البشرية بسناه خلال النصف الثاني من تاريخها، فكان مبعثه إيذانًا بمرحلة جديدة من عمر الإنسانية. بعد ذلك توالت المداخلات العلمية للمؤتمر. الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، كان موضوع مداخلته هو مقومات بناء مجتمع مثالي من خلال المنهاج النبوي، حيث فصلت مداخلته في الأسس التي عليها قام هذا المجتمع المثالي بالفعل، سواء في نسيجه الذاتي أو في علاقاته بغيره من المجتمعات. أما الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على مجلة حراء، فبيّن من خلال مداخلته التي انسابت متدفقة بلغة أنيقة، معالم المنهاج النبوي في فن كسب القلوب، مستعرضًا مواقف مضيئة من سيرة المصطفى ﷺ في فتح القلوب وكسب معركتها التي تفوق في أهميتها أي معركة سواها، لتختتم الجلسة مع الكلمات الدالة لفضيلة الشيخ يحيى صافي إمام وخطيب جامع لاكمبا بـ"سيدني".

ثم كانت الجلسة الثانية التي افتتحها الأستاذ مصطفى أوزجان مستشار مجلة حراء، بكلمة جامعة حول معاني المبعث النبوي رحمة للعالمين، ومسؤوليات الإنسان المسلم عن تحقيق مقتضى تلك الرحمة في مجتمعه، مبرزًا أمثلة من فكر الأستاذ فتح الله كولن المبثوثة في كتبه، والمتجلية في "الخدمة" التي يؤديها طلابه عبر العالم. وبدوره حرّك الدكتور محمد باباعمي مدير معهد المناهج بالجزائر المشاعر، بحديثه عن القواعد الكلية لبناء الحضارة من خلال السيرة النبوية، مستعيدًا نموذج الصحب الكرام في تفسير جديد، يجعل كل مسلم في تلك البلاد يتمثل مسؤوليات "الصحبة". أما الدكتور سمير بودينار مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بالمغرب، فكانت مداخلته عن المنهاج النبوي وعالمية العلاقات الإنسانية، منطلقًا من خاصية الختم في رسالة النبي ﷺ وعلاقتها بعالمية دعوته.

في مدينة ميلبورن التي انتقل إليها وفد حراء بمعية الأستاذ محمد ياووزلار، انعقد المؤتمر الثاني لحراء بتعاون

ندوة "ونحن نقيم صرح الروح"، جاكارتا.

أ.د. قمر الدين هدايت، رئيس جامعة شريف هداية الله الإسلامية، جاكرتا.

د. علي أونصال، مدير كرسي الأستاذ فتح الله كولن بجامعة شريف هداية الله الإسلامية، جاكرتا.

أ.د. عمار جيدل، الجزائر.

مـع مؤسسـة "سـيرينيتي" (Serenity Foundation) العاملـة فـي مجـال الحوار. فكان لقـاءً مع جمهور متنـوع أعاد من جديد إلى الأعين بل القلوب، مشـهد الأمـة الواحدة الملتئمة حول المنهاج النبوي باختلاف مجتمعاتها وتعدد انتماءاتها الجزئية.

أمـا برنامج زيارات ميلبورن، فقد امتد لسلسـلة المدارس "التركيـة الأسـترالية" هنالك، ليقف علـى النجاحات المتميزة التي أضحت -بفضل الله- تحققها في مجالات التربية والتعليم داخل المجتمع الأسـترالي، واستفادة أبنائه من خدماتها ذات المسـتوى الرفيع بتعـدد انتماءاتهم القوميـة والدينية. وكمثال على ذلك، فإن مدرسـة "إشـق" (Işık) في ميلبورن، التي صار اسـمها ابتـداء من هذه السـنة "Sirius"، صنفت السـنة الماضية فـي المرتبـة الثانية على مسـتوى ولايـة فيكتوريـا (عاصمتها ميلبورن) من بين ما يقارب ٥٠٠ مدرسة أسترالية.

لقد كانت رسـالة حراء، امتدادًا لهذه المجموعة المتنوعة مـن الخدمات التـي تقدمها الأجيـال الذهبيـة الجديدة لتلك البلاد بكل الحب. فمراكز الحوار المجتمعي التي تجمع كافة فرقـاء الوطن الواحد إلـى مائدة اللقاء المشـترك، والمدارس التي أصبحت مشـاتل لزراعة بذور الوفاق والسلم العالميين، والمؤسسـات الأكاديميـة والمدنيـة التـي تخـدم المسـلمين ومجتمعاتهـم الجديدة، كلها حلقات متصلة في هذه السلسـلة الذهبية من "الخدمة" في تلك الربوع الخضراء.

تشييد صرح الروح في أندونيسيا

ومن أستراليا، إلى الضفة الأخرى للمحيط الهادئ، أندونيسا... ذلـك الأرخبيـل الممتـد مـن آلاف الجزائر، والـذي غالبًا ما يُذكر علامة على أقصى نقطة في بلاد المسلمين، فيُسمع عنها أو يُقـرأ عند مالـك بن نبي وهو يتحدث عـن "محور طنجة-جاكرتا"، أو يُذكِّر بأبعاد "مؤتمر باندونغ".

غير أن الميزة الأهم لتلك البلاد، هي قصة الإسـلام فيها، التـي لا علاقـة لها بالقوة. قصة الإسـلام في تلـك البلاد هي قصة فاتحي القلوب والأرواح... التجار العرب المسلمين من حضرموت وعمان، ثم من الهند، ومن سـبقهم من تجار تلك الجـزر الذين قدمـوا إلى بغداد زمن الخليفة العباسـي هارون الرشيد، فعادوا يحملون في قلوبهم بذور الإسلام الأولى، التي أنبتت بعد ذلك على أرض تلك البلاد النائية المترامية الأطراف، أكبر بلد مسلم في العالم اليوم، يعيش فيه قرابة الـ١٥٪ منهم. فليـس أعلـم منهم بأهميـة بناء الـروح، تلك التـي كانت

ندوة "ونحن نقيم صرح الروح"، جاكارتا.

د. عبد الرحمن النقيب، مصر.

ندوة "ونحن نقيم صرح الروح"، جاكارتا.

أ.د. سعيد شبار، المغرب.

مناط الهداية للإسلام، وتَشبُّع قلوبهم بمعاني الإيمان بالوحي، وسبب اليقين في صدق رسالته، واصطباغ طبعهم بكريم أخلاقه، وسجايا القدوة من أبنائه، حتى صار لطف معشرهم ولين جانبهم وظاهر تواضعهم ملمحًا من ملامح أبناء أندونيسيا أينما كانوا.

أما المناسبة فمؤتمر دولي عقده في جاكرتا العاصمة الأندونيسية كرسي الأستاذ فتح الله كولن بجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، بمناسبة صدور النسخة الأندونيسية من كتاب الأستاذ "ونحن نقيم صرح الروح" يوم ٢٠١٣/٤/٢، واتخذ محورًا لأشغاله موضوع "بناء الذات الحضارية ومستقبل الإنسان"، بمشاركة كوكبة من علماء حراء؛ من مصر، والأردن، والجزائر، والمغرب، وتركيا، فضلاً عن البلد المضيف أندونيسا.

افتتح المؤتمر بكلمة الدكتور علي أونصال مدير كرسي الأستاذ فتح الله كولن بجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، التي تعد من أهم جامعات أندونيسيا، فهي جامعة دولية تضم إحدى عشر كلية، ويتعلم فيها واحد وعشرون ألف طالب، وكلمة مدير الجامعة الدكتور قمر الدين هدايت.

وخلال الجلستين العلميتين للمؤتمر، تناول الدكتور عبد الرحمن النقيب من مصر الحديث عن "الدين الذي لا يموت"، بل ينهض وإن كبت أمته، والشباب الذين هم مادة هذا النهوض، واستعرض التحديات التي تواجهها استعادة إعادة البناء. أما الدكتور عمار جيدل من الجزائر، فانطلقت مداخلته من وصف الأستاذ فتح الله كولن للدائرة المفرغة التي تعيشها أمتنا، مستعرضًا القوانين المتعددة لبناء الذات الحضارية من جديد، مؤصلة من الرؤية القرآنية. ثم تمحورت مداخلة الدكتور عماد الشريفين من الأردن، حول أهمية بناء الإنسان الجديد في الرؤية النبوية، وظهور رواد من المصلحين الذين اضطلعوا بهذه المهمة ومنهم الأستاذ فتح الله كولن، ومرتكزات تربية الإنسان الجديد عنده.

ثم تحدث الدكتور عثمان شهاب الأستاذ بجامعة شريف هداية الله بجاكرتا، في قراءة تحليلية ذات طابع فلسفي لكتاب "ونحن نقيم صرح الروح" باللغة الأندونيسية. وجاءت بعده مداخلة الدكتورة أماني برهان الدين لوبيس وكيل كلية الدراسات العليا لشؤون التطوير بالجامعة التي تحدثت عن تربية الإنسان المسلم المعاصر، مع تركيز على رؤية فتح الله

أ.د. علي باردق أوغلو، رئيس الشؤون الدينية السابق، تركيا.

أ.د. عصمت بوشاتليش، عميد كلية الدراسات الإسلامية، جامعة سراييفو.

أ.د. إبراهيم البيومي غانم، مصر.

أ.د. حسن مكي، رئيس جامعة إفريقيا العالمية، السودان.

كولـن التربوية للمرأة. ثم تناول الكلمة الدكتور سـعيد شـبار مـن المغـرب، ليتحدث عـن البناء الحضاري باعتبـاره ميلادًا ثانيًـا للأمـة، مقدمًـا رؤيتـه لمفهـوم البناء الحضـاري بوصفه أهـم أدوار الأمـة وشـرط إعـادة بنائهـا. أمـا الدكتور سـمير بودينـار من المغرب كذلك، فجـاءت مداخلته تحليلاً لمعالم الشـخصية الريادية في بناء الإنسـان كما يطرحها الأستاذ فتح الله كولـن خاصة في كتابه "ونحن نقيم صرح الروح"، لتختتم المداخلات بكلمة الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام مجلة حـراء الـذي بين أهـم معالم ومميـزات فكر الأسـتاذ فتح الله كولن كما بلوره في مشروع "الخدمة".

وعلـى هـذا مضـى الركب فـي تلك الربـوع، فـي لقاءاته وزيارته للمؤسسات. فكانت الزيارة لوكالة الأنباء الأندونيسية "Antara News"، ولقاء مديرها الذي أعرب عن سعادته الغامرة باسـتقبال الوفـد، فـي مفارقـة محيرّة حيـن قـال إن هذه هي أول مـرة يـزور فيها الوكالـةَ وفدٌ من العلمـاء والمفكرين من العالم العربي. ثم التأم جمع الضيوف مع نخبة من المفكرين والكتاب الأندونيسين على غداء مناقشة وحوار.

وقـد كان المشـهد فـي إحدى قاعـات جاكرتـا بديعًا، في حفل إطلاق النسخة الإندونيسية من كتاب "ونحن نقيم صرح الـروح"، سـواء فـي كلمـات الافتتاح الرسـمية للشـخصيات المدعـوة من تركيا وأندونيسـا، أو في صـوت الحناجر الفتية لأبنـاء وبنـات أندونيسـيا المغـردة بمـدح النبي عليـه الصلاة والسـلام، أو في الندوة الخاصة بتقديم الكتاب، التي توج بها الحفـل. وشـارك فيها الضيـوف القادمون مـن مختلف البلاد العربية وتركيا، إضافة إلى مفكرين وأكاديميين من أندونيسيا.

وفي مدرسـة قاريزما الوطنية (Kharisma Bangasa) بجاكرتا، التقـى وفـد علمـاء حراء مـع المسـؤولين عن هذه المدرسـة وأخواتهـا. حقًّا لقـد كان اللقاء مع ثلة جديـدة ممن "يقيمون صرح الروح" في تلك البلاد.

في البوسنة.. جمال المعنى والمبنى

يواصـل الركب المسـير متلمسًـا خطى السـابقين الرواد ممن وصلو إلى تلك البلاد الجميلة... يصل البوسنة التي ما استطاع القبح أن ينال من شرفها أو ينتهك عذرية جمالها، مهما غلت تضحياتها بأبنائها. بدأت القصة قبل عشـرين عامًا، برسالة من أهل البلاد إلى الأسـتاذ فتح الله كولن. أرسـل الأسـتاذ سـبعة من طلبته إلى هناك، وحين لقيهم البوسنيون الكبار في السن،

الشيخ حسن كافازوفتيش، رئيس علماء البوسنة والهرسك.

أ.د. شفيق كورديش، البوسنة.

أ.د. فؤاد سديش، البوسنة.

ندوة "من إنسان الغاية إلى المجتمع الراشد"، البوسنة.

كانو يحتضنونهم بأعين دامعة: "نحن ننتظركم منذ مائة سنة".

وهكذا بدأ العمل التربوي سنة ١٩٩٤، وبنيت المدرسة الأولى سنة ١٩٩٧. أما الآن فمدارس بوسنة سما (Bosna Sema)، الموجودة في أهم مدن البلاد، تعد في المرتبة الأولى على صعيد البوسنة والهرسك، وجامعة "برج" بسراييفو (International Burch University) التي تأسست عام ٢٠٠٨، نصف من يدرسون بها من البوسنة (بوشناق، وصرب، وكروات)، والنصف الآخر من ٢٢ دولة عبر العالم.

في البوسنة تتجاور قبور شهداء المرحلة العثمانية (من تركيا ومصر والمغرب والشام...) مع مقابر شهداء حرب البوسنة الأخيرة، وهي العاشرة في سلسلة من الحملات على هذه النقطة الأبعد من جغرافيا الإسلام في أروبا، لكنها الأثقل، بحصيلة ٢٥٠ ألف شهيد منهم ثلاثة آلاف من الصبيان. أما أيقونة الشهادة فكان حظها أحد عشر ألف شهيد. من أبناء سراييفو، التي امتد حصارها ١٤٢٥ يومًا كاملة، كأطول حصار على مدينة في التاريخ.

وفي قلب مقابر الشهداء، يرقد القائد الذي أحبه أهله فاحتضنوا جثمانه بين بيوتهم، "عبد الله" كما أوصى أن يعرّف على شاهد قبره، علي عزت بيغوفيتش. وعلى ذات الشاهد عَهدُه معهم: "نقسم ألا نكون عبادًا إلا لله".

وبينما لا زالت الجراح تلتئم ببطء، ينبعث الأمل من أبناء الجيل الجديد. سكن الطلبة الذي يبني جيل العلم والمحبة، "يورت منبع الأمل" تقصَّدوا بناءه في خط التَّماس السابق بين أبناء القوميات الثلاث.

غنيًّا كان برنامج زيارات الركب الزائر، وفد علماء حراء... فمن مقبرة الشهداء، إلى مساجد سراييفو العتيقة، ومن كلية الدراسات الإسلامية إلى المعالم العثمانية بالمدن البوسنية. غير أن بيت القصيد في زيارته لأرض البوسنة كان المؤتمر الذي نظمته كلية العلوم الإسلامية بجامعة سراييفو ومجلة حراء بعنوان: "من إنسان الغاية إلى المجتمع الراشد.. قراءات في الانبعاث الجديد من خلال السيرة النبوية" في سراييفو يومي ١٣-١٤ أبريل ٢٠١٣.

المشاركات العلمية كانت متنوعة؛ فقد افتتح المؤتمر بحفل مشهود في مسرح سراييفو، ضم كلمة فضيلة مفتي البوسنة وبعض كبار الشخصيات، ثم شهد مشاركة كوكبة من علماء البلاد كالدكتور شفيق كورديج أستاذ الحديث في أكاديمية التربية الإسلامية، مدينة زنيتسا، والدكتور فؤاد سديش أستاذ الحديث في أكاديمية التربية الإسلامية، مدينة بيهاج، والدكتور زهديا حسنويش أستاذ الحديث في كلية العلوم الإسلامية، سراييفو، والدكتور كنعان موسيش أستاذ الحديث في كلية العلوم الإسلامية، سراييفو.

أما وفد علماء حراء، فقد ضم إلى جانب الأستاذ مصطفى أوزجان مستشار المجلة، والأستاذ جمال ترك مدير أكاديمية البحوث بإستانبول، والأستاذ نوزاد صواش المشرف العام على المجلة، نخبة من علماء العالم العربي، كالدكتور حسن مكي من السودان، والدكتور إبراهيم بيومي غانم من مصر، والدكتور أحمد قعلول من تونس، والأستاذ شفيق الإدريسي من المغرب، والأستاذ جمال حوشبي من السعودية، والدكتور محمد باباعمي من الجزائر، والدكتور سمير بودينار من المغرب... كلهم قدم أفكارًا حول علاقة منهج التأسي والاتباع في السيرة النبوية بالانبعاث الجديد لأمتنا اليوم.

وعلى هامش المؤتمر، حلّقت الأرواح في حفل النشيد والمديح، وأجوائه البوسنية المعطرة بشذى التاريخ وأخلاق الفاتحين. وحيثما حل ركب حراء إلا وتَجَدَّدَ الإلحاحُ على المضيّ في الطريق... طريق تعميق الأواصر بين أجزاء الأمة في كل مكان، وحمل رسالة المحبة بين بني الإنسان لئلا يتكرر ما حدث ذات يوم في هذه البلاد. لقد كانت أمانة أهلها سلامًا لإخوانهم في كل مكان، ورجاء ألاّ ينسوا إخوانهم في تلك البلاد... بلاد الرباط.

هذا، وكنا نودّ أن نتطرّق إلى تحليقة حراء مع وفد من من علماء تركيا إلى مصر، والتئام شملهم في ندوةٍ بدار العلوم في جامعة القاهرة؛ وكذلك حضور بعض علماء حراء في النهد بمناسبة توزيع جوائز مسابقة كتاب "النور الخالد" التي شارك فيها حوالي ١١٠ آلاف شخص، وكذلك رحلة قبرص وإحياء ذكرى قدوم طلائع الصحب الكرام إلى تكل الديار... لكن ذلك كله يحتاج إلى مقال آخر... والسلام. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Turkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN

دار النشر للجامعات

الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،

أمام الجامعة القديمة

Phone: +967 1 440144

GSM: +967 711518611

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61

عمان/الأردن.

Phone: +962 656 064 44

GSM: +962 775 935 756

hirajordan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone:+1 732 868 0210

Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع

الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallahi7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

فتح الله كولن

رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة

أ.د. عبد الحليم عويس

- بحث استقصائي واستقرائي في الفكر النهضوي عند فتح الله كولن.
- مفاهيم تجديدية في معاني الجهاد وحوار الآخر.
- قراءة مبتكرة في "النبوة" عمومًا وفي نبوّة محمد ﷺ
- واجب المسلم في تغيير العالم وتعديل مساراته.
- التسامح والتراحم عقيدةً وسلوكًا.
- التعبئة الفكرية من أجل الكشف عن الفكر الحضاري للإسلام.
- الحافز الفكري والنفسي للبطولة والأبطال في العمل الدعوي.

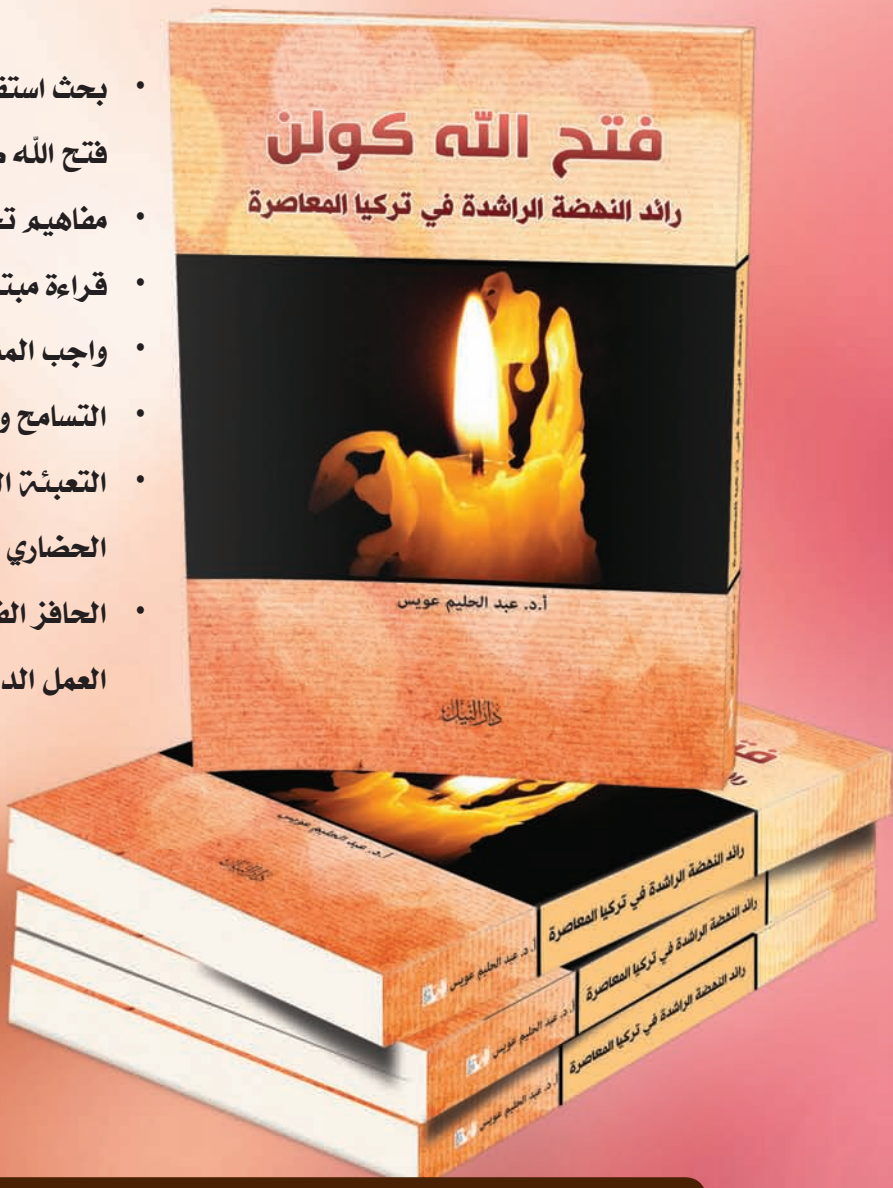

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201004871038+
www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الدنيا والناس

الدنيا مـلأى بالناس ألا كُـن حقًّـا إنسـانا
إلى الله اقصِدْ في سيرك وحـاذرْ سـبلاً فُتَّانـا
وأصغِ بقلبك للقرآن يكنْ لـك إلى الله ربّانا

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Mayıs - Haziran 2013 Sayı: 36 Fiyatı: 6 TL.
36